أثر السياق فى إنتاج الدلالة البلاغية
((العدول عن الماضى إلي المضارع، وعكسه
فى الذكر الحكيم- نموذجاً -))

د/ عبد العزيز أبو العزم عبد المقصود سليم

مدرس البلاغة والنقد

فى كلية الدراسات الإسلامية والعربية (بنين)

بالديدامون (شرقية)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام البلغاء، وسيد الفصحاء، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله، وصحابته، نجوم البيان، والهدى، صلاة، وسلاما، دائمين إلى يوم الدين، وبعد:

فالقرآن الكريم هو النبع الثر، الذى لا يغيض، ولا تنقضى عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، بل يزداد روعة، وجمالا، كلما تُفحصت مفرداته، وتراكيبه، وتُدبرت معانيه، والتُمست أسرار تراكيبه، واستُشفت لطائفه التى يستشعرها المتلقى لآلىء تتكشف عن أصدافها، كأنها الحور العين مصونة، لا ينالها إلا من جاهد النفس فى سبيلها، وأمهرها التقوى فى حياته، فهو نور لا تطفأ مصابيحه، وشعاع لا يخبو توقده، وبحر لا يدرك غوره، فسبحان من أنزله نورا، وهدى للمتقين.

وهذه دراسة لأثر السياق فى العدول من الماضى إلى المضارع، وعكسه، فى البيان القرآنى تحاول الوقوف مع أبرز مواقعه، بما يجلى دور السياق فى إنتاج الدلالة البلاغية، ملائمة أغراض الكلام، ومقاماته، وخاصة أن لهذا الأسلوب سرا عاما هو: "تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر، والملال، لما جُبلت عليه النفوس من حُبَّ التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد.... وله أسرار خاصة تلمح فى كل سياق، تختلف باختلاف مجالات القول، وأغراضه، كالتعميم، والتنبيه، والتتميم، والمبالغة، والاختصاص، والاهتمام، والتوبيخ، وغيرها.[1]

ولكثرة شواهده فى الذكر الحكيم رأيت متابعة سياقات بعضها، متابعة تربط الشاهد بسياقه، وبغرض الكلام، وملاءمة ذلك للمقصود، بما يجعل

(١) ينظر: البرهان: ٣/٣٢٦ – ٣٣٠ ، والاتقان: ٢/٩٠٢ .

السياق أثرا فاعلا فى إنتاج الدلالة البلاغية، كما يجعل هذا الأسلوب فى البيان القرآنى– كغيره من أساليب البلاغة– دعامة من دعائم منهج الدعوة إلى الله ﷻ، تستفز النفوس لتفحص سر العدول عن الأصل فى استعمال الأفعال[1]

ملاحظات لفتت إلي بحث هذا الموضوع

وقد لفت نظرى لبحث بلاغة هذا الأسلوب ملاحظات، أهمها:

١– أن فيه إيجازا يطوى الزمن، فحين يعدل إلى المضارع يطويه برحلة إلى الماضى، يستحضره كأنا نراه رأى العين، وحين يعدل إلى الماضى يطويه إلى المستقبل، بعرض الأحداث التى لم تقع كأنها قد وقعت، وفرغ من تحققها، وهذا أبلغ فى التذكير، والترهيب، وآكد، وأعظم موقعا فى النفس.

٢– أحيانا تكاد تتفق صياغة الأسلوب فى موضعين، فتوهم التكرار، إلا أن متابعة كل أسلوب فى سياقه تكشف عن فروق دقيقة، تنفى التكرار، وتجعل كلا منهما أليق بسياقه، ومقامه، وغرض الكلام "فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ" " فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ" وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً" "وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ".

٣– يأتى المضارع فى سياق ولا يراد به زمن محدد، بل يراد به استمرار المخاطب على الحدث فى كل وقت، لتهويل الأمر، وتكثيره، ترغيبا فى الهدى، وترهيبا من الانحراف عنه"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ".

٤- غالبا ما يأتى العدول إلى الماضى فى مشاهد القيامة، لغرض أساس (ترهيب الكافرين، وترغيب المؤمنين) ولسر عام ذكره العلماء (تصوير غير الحادث بالحادث المحقق) يتبعه أغراض كثيرة: كالوعد، والوعيد، والإنذار، والبشارة، والتنديم، والتحسير، والتعجيل بالمسرة، أو المساءة، والتشهير بالمكذبين، وتنبيه المنصرف عن أمر القيامة.. تستشف من سياقاته المختلفة.

---

١ يراجع: أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د/ عبد الغنى بركة ص ٣٢١ و ٣٣٠ .

وجاءت الدراسة فى تمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وقد أوجز التمهيد نظرة البلاغيين لهذا الأسلوب، وخلص إلى ما ينبغى الاهتمام به، وهو بيان سر العدول مرتبطا بدور السياق فى إنتاج الدلالة البلاغية، ملائمة المقام، وغرض الكلام، وجاء تطبيق ذلك فى مبحثين: كان المبحث الأول لشواهد العدول إلى المضارع، وكان الثانى لشواهد العدول إلى الماضى، وأخيرا كانت الخاتمة التى أوجزت أبرز مواقعه فى البيان القرآنى، وأهم خصائصه الفنية، والبلاغية.

****

تمهيد

مفهوم العدول فى استعمال الأفعال

التعبير بالماضى عن المضارع وعكسه هو لون من العدول عن مألوف استعمال الكلام، أدرجه بعض البلاغيين تحت المجاز بالاستعارة التبعية، أو المجاز المرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو المجاورة ([1]) .

وأدرجه بعضهم تحت الالتفات بمفهومه الفضفاض، الذى يتسع للعدول من أسلوب إلى آخر، ومنهم العلوى، وابن الأثير، والزركشى، وقد استقرت معالجته تحت لونين بلاغيين، أحدهما: المجاز بالاستعارة التبعية فى الفعل، وبالأحرى فى زمنه، وربما نظر هذا الرأى إلى القيمة التصويرية لهذا الأسلوب، ونقلها للزمن، وما تشع من دلالات، وتلقى من ظلال على نفوس المخاطبين به، تتباين حسب الموقف، والسياق، وغرض الكلام.

ثانيهما: الالتفات، وربما نظر هذا الرأى إلى قيمة العدول عن الأصل فى استفزاز نفوس المتلقين، مما يلفت للبحث عن سره بما يلائم أغراض الكلام، وسياقاته المختلفة "لأنه إذا نقل الكلام من أسلوب إلى أسلوب، كان ذاك أنشط للإصغاء، وأيقظ للسامع، مما لو أجرى الكلام على أسلوب واحد"[2].

وإذا تتبعنا معالجة هذا الأسلوب وجد أنه على سبيل الاستعارة التبعية، التى تتبع استعارة أخرى فى مصادرها، لدلالة الفعل على (الحدث والزمن) فمن حيث الحدث يستعار قتل لضرب ضربا شديدا، بناء على تشبيه الضرب الشديد بالقتل، وإجراء الاستعارة فى الفعلين، بناء على جريانها فى مصدريهما، ومن حيث الزمن يستعار لفظ الماضى المحقق للمضارع غير الواقع، بناء على تشبيه غير الحاصل بالحاصل فى قوة تحققه، كما يستعار لفظ المضارع، الذى

---

١ – تراجع: حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية للصبان صـ ٣٥٧.

٢ – التبيان في علم البيان ص١٧٣.١٧٤ .

سيأتى، للماضى المفروغ من حدوثه، بناء على تشبيه الحاصل المقرر بغير الحاصل، فى كونه نصب العين، وأنه مما يجب مشاهدته.

فمرتكز الدلالة فى استعارة الفعل باعتبار الحدث تتجه إلى المشتق نفسه، والاهتمام منصب على الحدث فى قتل، المستعار للحدث فى ضرب، انتقالا من استعارته فى مصدريهما، فالأسلوب قد اتحد زمنا، واختلف حدثا.

وفى استعارة الفعل باعتبار الزمن كانت الدلالة من صب عليه لإختلافه بين الماضى والمضارع، أما الحدث فهو متحد، فنحن أمام أسلوب اتحد حدثا، واختلف زمنا، وكان الزمن قيدا فيه، فاستعارة الفعل باعتبار الزمن تجرى فيما قيد به الفعل، لا فى الفعل نفسه.([1]).

"وإذا اشتمل الشىء على قيد فالغرض ذلك القيد- كما قال عبد القاهر- فهو مناط السر البلاغى، وما ينبغى أن يعنى به الدارس"([2]).

وقد تبع السيد فى حاشيته رأى جمهور البلاغيين فى استعارة الفعل باعتبار الحدث أن الاستعارة فيه تابعة للاستعارة التى تجرى فى مصدره، وسار فى استعارته باعتبار الزمن على مذهب العصام، الذى يعدُّ الاستعارة فى الفعل تابعة لتشبيه سابق عليها، مخالفا ما ذهب إليه بعض البلاغيين، وما هو مقتضى كلام الأصوليين: أن عدول الماضى عن المضارع، وعكسه، من باب المجاز المرسل، لعلاقة الإطلاق والتقييد، أو المجاورة ([3]).

أما عن معالجته تحت الالتفات بمفهومه الفضفاض- الذى تعدى صوره الست المعروفة فى الضمائر إلى التعبير بالأفعال محل أخواتها، والعدول من الجمع إلى المفرد، والعكس- تجده فى تعريف العلوى له: " هو: العدول

---

١ – تراجع : حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية صـ ٣٥٧.

٢ – شروح التلخيص ٤/ ١١٥. ودرر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات – للحموى الحنفى صـ ١٠٢ – بتصرف يسير.

٣ – السابق – صـ ٣٥٥ ، وما بعدها.

من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر، مخالف للأول، وهذا أحسن من قولنا: العدول من غيبة إلى خطاب، ومن خطاب إلى غيبة، لان الأول يعم سائر الالتفاتات، والحد الثاني إنما هو مقصور على الغيبة، والخطاب، لا غير"[١].

كما تجده في قول السبكي يروى بحث بعضهم له ضمن الالتفات: "ومنهم مَن يجعل الالتفات نقل الكلام من حالة إلى أخرى، وجعل منه ابن النفيس في طريق الفصاحة التعبير عن المضارع بالماضي، وعكسه، وجعل غيره منه الانتقال من خطاب الواحد، أو الاثنين، أو الجمع، لغيره"[٢].

هذا وقد بحث الالتفات تحت مصطلحات كثيرة يجمعها العدول عن الأصل كالانصراف: عند ابن المعتز[٣].والصرف: عند ابن وهب [٤] والانعطاف والتحول: عند القرطاجنى [٥] ونقل الكلام: عند الزركشى [٦] وتلوين الخطاب: عند القرطبى [٧] وخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر عند بعضهم([٨]).

وإذا كان المتفق عليه فى العدول من الماضى إلى المضارع، وعكسه، أنه يحوى عدولا عن نسق الكلام، وتحويلا لمساره، يستفز النفوس لاستشفاف أسراره البيانية، فمنظور فيه إلى المعانى السابقة، سواء كان هذا مجازا بالاستعارة التبعية، أو مجازا مرسلا، أو التفاتا.

---

١ – الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – للعلوى- ١٣٢/٢.

٢ – عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ٤٦٤/١.

٣ – البديع – لابن المعتز- ص٥٨ .

٤ – البرهان في وجوه البيان ص١٥٢ وينظر : معجم المصطلحات البلاغية ١/ ٢٩٤- ٢٩٥ .

٥ – منهاج البلغاء وسراج الأدباء ص٣١٥ .

٦ – ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣٣٣/٣.

٧ – الجامع لأحكام القرآن ٢١٢/١٠. /٢١٣ و ٣٢٧/١٤ و ٣٤١ و ٢١٥/١٦.

٨ – يراجع: خصائص التراكيب – د/ محمد أبو موسى – صـ ٢٠٤ وما بعدها.

من ثم، فإن ما ينبغى البحث عنه هو سر العدول، ومدى ملاءمته أغراض الكلام، وسياقاته، فيكون بحثا فى تناسب معانى القرآن، يبين أسراره، لتعدد أغراض هذا الأسلوب وتشعبها، حيث تتعدى الغرض العام" تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر، والملال" إلى أغراض خاصة تلمح فى كل سياق.

من سياقات العدول فى هذا الأسلوب

ورد العدول من الماضى إلى المضارع، وعكسه، فى الذكر الحكيم فى شواهد كثيرة، وسياقات عديدة، حاولت اختيار نماذج منها تلائم طبيعة البحث، التى تركز على ملاءمة العدول للسياق، والغرض، ومقصود الكلام، ودور ذلك فى إنتاج الدلالة البلاغية، كان من هذه النماذج:

****

المبحث الأول: العدول إلي المضارع

عدل البيان القرآنى إلى المضارع في مواطن كثيرةٍ، وسياقات عديدة، لأسرار بلاغية، تتكشف بمتابعة سياقاتها، التى كان من أبرزها: سياق تصبير رسول الله ﷺ وتسليته على إيذاء قومه، بسرد قصص إيذاء إخوانه من الأنبياء- عليهم السلام- من أقوامهم، وبيان أن النصر لفريق الإيمان، فى قوله ﷻ:"إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ"[ص: ١٨] وفى سياق آخر يوضح كيف نبذ فريق من اليهود القرآن، على الرغم من تبشيرهم به، فى قوله ﷻ: "وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَـكِنَّ الشَّيْاطِينَ كَفَرُواْ.." [البقرة: ١٠٢].

وفى سياق ثالث جاء بيانا لموقف اليهود من رسلهم، فى دعوتهم إلى التوحيد، فى قوله ﷻ: "لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ"[المائدة: ٧٠].

وفى سياق رابع ورد تفصيلا لتكريم الله فريق المؤمنين، وتعذيب فريق الكفر، فى قوله ﷻ: "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ" [الحج: ٢٥].

وفى سياق خامس ورد تدليلا على البعث، ببيان عجيب قدرة المولى ﷻ فى إحياء الأرض بعد موتها في قوله ﷻ : "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ"[فاطر:٩].

سياق تصبير رسول الله ﷺ وتسليته

"إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ" [ص: ١٨].

ورد التعبير بالمضارع " يسبحن" عدولا عن اسم الفاعل" مسبحات" على خلاف مقتضى الظاهر، بهدف تصوير استمرارية التسبيح، وحدوثه حالا

بعد حال، فى رحلة إلى الماضى، تنقل الحدث ماثلا أمامنا، مستمرا، كأنا نراه رأى العين، يجسد معجزة نبى الله داوود عليه السلام (١).

وقد ورد الأسلوب فى سياق يمتد من أول السورة: "صٓ* وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ [ص:١- ٣]*" إلى قوله ﷻ:" اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ*إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ" [ص:١٧- ١٨].

سرد السياق قصص بعض الأنبياء، واصفا معاناتهم مع من كفر برسالاتهم، وخلص إلى افتراء قريش السحر والكذب على الرسول ﷺ، وتعجبهم من اختصاصه بالرسالة، دون أشرافهم، وجحودهم دعوته، ومنابذتهم العداء له، ثم ربط بين هذا، وصبر أخيه أيوب عليه السلام على الطاعات، وأوَّابيَّته فى العبادة" فجملة "وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ" يجوز عطفها على جملة "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ" بأن أتبع أمره بالصبر، وبالائتساء ببعض الأنبياء السابقين فيما لقوه من الناس، ثم كانت لهم الغلبة، والنصر، وكشف الكرب، ويجوز عطفها على مجموع الكلام قبلها، من عطف القصة على القصة، والغرض هو هو"(٢).

لذا "ابتدىء بذكر داوود عليه السلام- وقد أعطى ملكا وسلطانا لم يكن لآبائه- ففى ذكره إيماء إلى أن شأن محمد ﷺ سيصير إلى العزة والسلطان، ولم يكن له سلف، ولا جند، فأشبهت حاله حال داوود عليه السلام"(٣).

والغرض تسلية رسول الله ﷺ وتصبيره، بالعدول عن اسم الفاعل إلى المضارع، من خلال المشابهة بين الرسول ﷺ وداوود عليه السلام والأنبياء قبله، جاء المضارع فى هذا السياق لينفى العجب فى إثبات التسبيح للجبال، لدخولها

---

١ – يراجع: خصائص التراكيب – د / محمد أبو موسى– صـ ٢٠٧ ، والكشاف للزمخشرى – ٥/ ٢٤٩ .

٢ – التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢٦ – بتصرف يسير.

٣ – التحرير والتنوير ٢٣ / ٢٢٦.

تحت تسبيح كل شىء "وإن من شىء إلا يسبح بحمده" ويقرر أن العجب فى كون تسبيحها مع نبى الله داوود، وحين حضوره، خصوصية له، ومعجزة خرقت العادات "فجملة "يسبحن" حال اختير الفعل المضارع، دون الوصف، الذى هو الشأن فى الحال، لأنه أريد الدلالة على تجدد تسبيح الجبال معه، كلما حضر فيها، ولما فى المضارع من استحضار تلك الحالة الخارقة للعادة"([1]).

وعليه، فقد أفاد العدول إلى المضارع الاستمرارية، وتجدد الحدوث حالا بعد حال، فكان أدخل فى الخروج عن المألوف، بخلاف ما لو عبر باسم الفاعل"مسبحات" ونظيره قول الأعشى:

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة * إلى ضوء نار فى يفاع تحرق**
ولو قال محرقة لم يكن له ذلك الوقع"([2]).

كما أفاد استحضار تلك الحال الماضية نصب أعين المتلقين لتأملها، فلاءم تصبير الرسولﷺ وتسليته على إيذاء قريش، وأشار إلى أن كل الأنبياء مبتلى، يجابه قوى الشرِّ بمفرده، مؤيدا بخوارق تتعدى المألوف، كما لاءم السياق العام لسورة (ص) "وهى مكية النزول، ومن أغراضها: تسلية رسول الله ﷺ على إيذاء قريش، والبشارة بإلانة قلوب الجاحدين له، كما لانت الجبال بالتسبيح لسيدنا داودعليه السلام "([3])

والبشارة مستشفة من الربط بين أمره ﷺ بالصبر على ما يقولون، وأمره بذكر داوود عليه السلام "اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ" "فالجبال- وهى من أشد خلق اللهعز وجل صلابة- تلين بالتسبيح معه، وفيه إشارة إلى أن التسبيح يرقق أغلظ القلوب، وأقساها، ويزيح عنها غشاوة

---

١ – التحرير والتنوير ٢٣/ ٢٢٨.

٢ – البحر المحيط – ٧/ ٣٧٤ – و روح المعانى – ٢٣/ ١٧٤ والجدول فى إعراب القرآن الكريم ١٢/ ١١٣.

٣ – ينظر: أبى السعود ٤ /٥٥٩ وما بعدها ، والتحرير والتنوير ٢٣/ ٢٠٢

الباطل"فمعنى"سخرنا الجبال" أى: التى هى أقسى من قلوب قومك، فإنها أعظم الأراضى صلابة، وقوة، وعلوا، ورفعة، بأن جعلناها منقادةً، ذلولاً كالجمل الأنف"([1]).

كما أن فى العدول إلى المضارع إيجازا طوى الزمن، فى رحلة خاطفة إلى الماضى البعيد، نقلت إلينا تسبيح الجبال فى لوحة بديعة، فأرتنا أشد مظاهر الطبيعة صلابة خاشعة، قد لانت بذكر الله ﷻ وفيها تخييل لطيف، نقل تسبيحها مستمرا، متناغما مع تسبيحه عليه السلام، مما يشعر باستمرار المعجزة بتصور الحركة المستمرة فى التعبير بالمضارع "يسبحن" دون الوصف المعدول عنه "مسبحات" لإفادته الدوام على التسبيح، والثبات.

وأخيرا، فمفارقة الجبال طبيعتها بالتسبيح مع داوود عليه السلام عدول عن الأصل، ناسبه العدول عن الوصف" مسبحات" إلى المضارع" يسبحن" يؤيده إسناد الفعل إلى نون النسوة، ليفيد المبالغة فى التحول من شدة الصلابة إلى شدة الليونة، فيعكس الانقياد المختار لله ﷻ بالتسبيح، وانفراد كل جبل بلون من التسبيح يختلف عن غيره، وإن كان متناغما معه، فأصوات التسبيح مختلفة، لكنها تتناغم لتعكس الانقياد التام لطاعة الله ﷻ مع داوود عليه السلام ([2]).

سياق نبذ بعض اليهود القرآن على الرغم من تبشيرهم به

"وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ.." [البقرة/٢ ١٠٢].

فى سياق نبذ فريق من اليهود أحكام الكتاب (التوراة، أو القرآن) وانحرافهم عن منهج التوحيد، بتقولهم السحر على الأنبياء "وَلَمَّا جَاءهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ* وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ

١- نظم الدرر – البقاعى – ١٦ / ٣٤٩.

٢ – يراجع: السابق ١٦ / ٣٤٩ – بتصرف.

عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ.." "أى: من ادعائهم أنه ما ملك ملكه، وما دانت له الطير، والإنس، والجن، إلا بالسحر الذى تقولوه عليه، وافتروه"(١).

جاء العدول من الماضى (ما تلت) إلى المضارع "مَا تَتْلُوا" خلافا لمقتضى الظاهر، كاشفا خطر التقول على الأنبياء، بغرض توبيخ اليهود على استمرارية ادعاءهم أن سيدنا سليمان عليه السلام لم يملك ملكه إلا بالسحر(٢)

والعدول إلى المضارع قد استحضر حال اليهود الماضية، مصورا كثرة اصطنعاهم السحر، وفشوه فيهم، واستمراريته، وجعلها نصب عين المتلقى، لافتا إلى تأصل هذه الصناعة فى نفوسهم، وشهرتهم بها، فعكس انسداد قلوبهم، ومنافذ شعورهم، أن تنفتح لنور التوحيد، وكان ملائما سياق التشهير بهم، وتوبيخهم على فعلهم، بما صوره من كثرة تلاوتهم هذا الافتراء، وفشوه فيهم، حتى جندوا كل طاقاتهم لتمكينه، مما يدل على عنادهم، وتعمد إصرارهم على الباطل، واستمراره فى عقبهم، طبيعة لا تتخلف(٣)

فكان مصورا الامتداد الزمنى لهذه الطبيعة المنحرفة، ولو جاء بالماضى لأشعر بانتهاء هذه الطبيعة عند الأسلاف، وسمح بتسرب نور التوحيد إلى قلوب الأبناء، "فالتعبير بالمضارع يوضح الحال التى يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضى"(٤).

والجمهور على أن الشياطين:هم شياطين الإنس فى زمن سليمان عليه السلام وعليه، يكون المضارع استحضارا لحكاية الحال الماضية فقط(٥).

---

١ – يراجع: السابق – ٢ / ٧٢ .

٢ – يراجع: التحرير والتنوير – ١ / ٦٢٩.

٣ – يراجع: نظم الدرر – البقاعى – ٢ / ٧٢ .

٤ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان – ابن قيم الجوزية – ٤٣.

٥ – جامع البيان للطبرى – ١ / ٤٤٦ و الجامع لأحكام القرآن القرطبى ٤٢/٢ و البحر المحيط لأبى حيان ١ /٥١٢ ، والمزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى ١ / ٢٦٥.

واختار ابن عاشور أن يكون المضارع على حقيقته، ليفيد استمرارية افتراء شياطين الإنس على الأنبياء، والدعاة:" فقوله:"تتلو" جاء بالمضارع لحكاية الحال الماضية على ما قاله الجماعة، أو هو مضارع على بابه على ما اخترناه، من أن الشياطين هم أحبارهم، فإنهم لم يزالوا يتلون ذلك، فيكون المعنى: أنهم اتبعوا أى: اعتقدوا ما تلته الشياطين، ولم تزل تتلوه"([1]).

وكلام الشيخ – وإن كان ينفى العدول- إلا أنه لا يخرج عن الغرض توبيخ أحبار اليهود المتبعين أسلافهم فى تقوّل السحر على أنبيائهم، بل إن التوبيخ يتعدى إلى كل من يصطنع نهجهم إلى قيام الساعة، حيث وسع الدائرة، لتشمل كل متبع لما تلته الشياطين زمن سليمان عليه السلام وربما دعاه إلى ذلك "أن أعوان الشر فى كل زمن يستدعى بعضهم بعضا، وتآمرهم على أصحاب الرسالات مسجل عليهم، مشهور"([2]).

والسياق العام للأسلوب يرجح العدول كما قال الجمهور، واستحضار الحال الماضية لا يمنع من تخيل استمرارية تتبع المقلدين آباءهم من اليهود ما تلته الشياطين زمن سليمان عليه السلام إلى قيام الساعة، لأن المراد بالشياطين" اليهود، قيل: من كانوا فى عهد سليمان، وقيل: من كانوا فى عهد الرسول ﷺ وقيل الجميع" ([3]).

العدول إلى المضارع أفاد تأصل القبح فيهم، فكان ملائما غرض الكلام، وهو توبيخ أحبار اليهود، لاتباعهم الأسلاف في التقول على أنبيائهم، ولجحدهم نبوته ﷺ وكفرهم بالقرآن، ويؤيده إيحاء الفعل "نبذ" فى قوله: " نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللّهِ وَرَاء ظُهُورِهِمْ " فهو مثل للإعراض عنه، تشبيها بمن يلقى الشىء وراء ظهره، ويهمل ما فيه عن عمد

---

١ – التحرير والتنوير – الطاهر بن عاشور – ١/ ٦٢٩.

٢ – من أسرار التعبير القرآنى– دراسة فى سورة الأحزاب–د/ محمد أبو موسى– ص ١٣٠.

٣ – – المحرر الوجيز – ابن عطية – ١ / ١٨٥.

ومكابرة، وقوله: " كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ" توبيخ لهم، وزيادة مبالغة فى إعراضهم عما فيه بالجملة، فقد حادوا عن المنهج، واتبعوا ما لا يتبع " (١).

سياق بيان موقف اليهود من رسلهم فى دعوتهم إلي التوحيد

ورد الأسلوب فى موضعين بصياغة تكاد تتفق، فتوهم التكرار، إلا أن متابعة كل منهما فى سياقه تكشف عن فروق دقيقة، تنفى التكرار، وتجعل كل أسلوب أليق بسياقه، أولهما: فى سورة [البقرة:٨٧] والآخر: فى سورة [المائدة: ٧٠] والفرق بينهما فرق بين السياق، والغرض فى كليهما.

الأسلوب فى سياق سورة البقرة

"وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونْ" [البقرة : ٨٧]

ورد العدول إلى المضارع خطابا مباشرا إلى اليهود، فى سياق ممتد من قوله:"يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ"[البقرة:٤٠] إلى آية الشاهد[٨٧] والسياق جميعه مواجهة مباشرة لهم، تفضح موقفهم من دعوات رسلهم إلى التوحيد، وأنهم كذبوا فريقا من أنبيائهم، وما زالوا مستمرين على قتل فريق آخر" فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ" فالغرض مواجهتهم هم بالتوبيخ، تفظيعا لقبيح فعلهم.

وجاء قوله:"بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ" مشيرا إلى طبيعة منحرفة "إيذانا بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء النفوس، والموافقة لها، وجاءت همزة الاستفهام متوسطة بين فاء العطف، وما تعلق بها من الأفعال السابقة، فى قوله:"أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ" لتوبيخهم على تعقيبهم ذلك، أو للتعجب من شأنهم، والفاء فى قوله: "ففريقا كذبتم" للسببية، أو التعقيب"(٢)

١ – إرشاد العقل السليم – لأبى السعود ١/ ٢٢٣ ، والبحر المحيط ١/ ٤٩٤.
٢ – إرشاد العقل السليم – ١ /٢١١.

والإشارة إلى أن موقفهم هذا مسبب عن استكبارهم يشير إلى طبيعة قاسية، معاندة، وتركيز السياق على قبائح جماعة الكفر منهم، دون التفات إلى جماعة الإيمان، يشير إلى قلتها فيهم، مما يلفت إلى أن الغرض هو مواجهة المخاطبين بالتوبيخ المباشر، لمجاوزتهم الحد فى التجرؤ على الله ﷻ فلم يقتصروا على تكذيب رسله، بل تعدَّوه إلى شدة الحنق عليهم، فامتدت أيديهم الآثمة لتقتلهم، وتلك جراءة، وشناعة فى الجرم ما بعدها شناعة.

فى هذا السياق عدل إلى المضارع استحضارا لتلك الحال الماضية، فأرانا صورتهم يقتلون رسلهم، تقتيلا مستمرا، تعرض علينا تلك الصورة الفظيعة، بغرض تشنيعها، وتفظيع جرم مرتكبيها، والتعجيب من هذا الانحراف:" فإن قلت: هلاّ قيل:(وفريقاً قتلتم)؟ قلت: هو على وجهين: أَحدُهما: أَنْ تراد الحال الماضية؛ لأَنَّ الأَمر فظيع فأُريدَ استحضاره في النفوس، وتصويُره في القلوب، الثاني: أَنْ يُراد، فريقاً تقتلونهم بعد، لأَنّكم تحومون حول قتلَ محمدﷺ "(١).

دار كلام المفسرين لبيان سر العدول حول ما سبق من(حكاية الحال الماضية، وتصوير استمراريتهم على ذلك) تنبيها على أن الجحود صار طبيعة تأصلت فيهم، وامتدت فى عقبهم، فالمخاطبون لم ينتهوا عن عادتهم القبيحة فى قتل أنبياءهم، وأضاف بعضهم: أن سر العدول هو: مشاكلة الأفعال المضارعة فى فواصل الآيات قبلها، رعاية للتناسب(٢)

لكن متابعة السياق تضيف- إلى ما سبق- تعمد مواجهتهم بالتوبيخ، والتبكيت على فظاعة جرمهم، علهم يرتدعون، فهو يتآزر مع استحضارهم بحكاية الحال الماضية، ومع دلالة المضارع على استمراره فى عقبهم، ليضيف ملمحا آخر، هو: أن من لا يرعوى بالخطاب المباشر، والمواجهة بالعيوب، قد طمس على قلبه، فلا خير يتسرب إليه، ولا فائدة ترجى منه.

---

١ – الكشاف – ١ /١٥١ .

٢ – يراجع: السابق – الصفحة نفسها، والبحر المحيط ١/ ٤٦٩ ، وروح المعانى ١/ ٣١٨.

وللمتلقى أن يلحظ ذلك فى استفهامات إنكارية، توبيخية، تخاطبهم مباشرة، تحيط السياق، وتتآزر جميعها لكشف طبيعة غريبة، قبيحة، يواجه أصحابها بالتوبيخ، والتبكيت، وما يشعرون "أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ"؟ " أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ"؟ وفى مواجهتهم بإقرارهم بعدم سفك الدماء " ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ" وفى إعراضهم عن موجب الإقرار "ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مِّعْرِضُونَ" وفى ضمائر الخطاب المباشر فى الأفعال.

من ثم، فإن معانى التوبيخ والتبكيت المنبثة فى تضاعيف هذه الأدوات المحيطة بالسياق، تكشف لنا الغرض الأهم من العدول إلى المضارع، وأنه استحضار اليهود بالخطاب المباشر، ومواجهتهم بالتبكيت، والتوبيخ على شناعة فعلهم، ولا شك أنها أقوى دلالة على تصوير قسوة قلوبهم، وتبلد أحاسيسهم، من الإخبار عنهم فى هذا الموطن، وأشد ملاءمة للسياق.

الأسلوب فى سياق سورة المائدة

"لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرائيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ"[المائدة/٧٠].

عدل البيان فى سياق المائدة إلى المضارع "يَقْتُلُونَ" وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالماضى (قتلوا) ليوافق "كَذَّبُوا" وبين المفسرون سر العدول بما لا يخرج عما قيل فى آية البقرة، وأنه لاستحضار تلك الصورة الهائلة للقتل، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر، فما زالوا مصرين على عادتهم القبيحة فى تقتيل أنبيائهم، ولرعاية تناسب الفواصل القرآنية ([1]).

لكن متابعة الأسلوب فى موضعيه تبرز فرقا بينهما فى الصياغة، وفى السياق، أما الصياغة، فقد اعتمدت فى البقرة ضمائر الخطاب، فى أسلوب

---

١ – يراجع: الكشاف – ٢/ ٥٠، والبحر المحيط ٣/ ٥٤٢ ، وحاشية شيخ زادة على البيضاوى٢/٢٢٥ ، والجدول فى إعراب القرآن الكريم ٥ / ٤١٤.

إنشائى لعب الاستفهام الإنكارى، التوبيخى، دورا فى مواجهة المخالفين بالتبكيت "أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونْ" وفى المائدة اغْتُمِدَت ضمائر الغيبة، فى أسلوب خبرى "كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ"

أما السياق، فقد ورد الأسلوب فى البقرة فى سياق يركز على تفصيل قبائح اليهود، يستحضرهم بالخطاب المباشر ليواجههم بها، دون التفات إلى جماعة الإيمان فيهم، وكأنها لم تكن، إشارة إلى انصباب الغرض على مواجهة المخاطبين- متبلدى الحس- بالتوبيخ المباشر، لكمال فظاعة الجرم.

وفى المائدة ورد الأسلوب عرضا- فى سياق يركز أساسا على توصية المؤمنين، وحثهم على الوفاء بالعقود: التى هى أحكام الدين المبلغة من رسل الله إليهم- فكان عرضا موجزا بضمائر الغيبة لنموذج (اليهود) الذى خالفها، ليحذر المؤمنون التشبه به، والتحذير مستشف من توصيتهم بالوفاء بالعقود فى مطلع السورة: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ"[المائدة:١] وفى هذا ما يلائم مقصودها الكلى، الذى يدور حول "الوفاء بما هدى إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل، من توحيد الخالق، ورحمة الخلائق، شكرا لنعمه، واستدفاعا لنقمه."(١)

فقد بين المولى ﷻ للمؤمنين نعمته عليهم، بالإحلال لهم من بهيمة الأنعام ما حرمه على غيرهم من اليهود، والنصارى، لعدم وفائهم بالعقود، ونقضهم المواثيق، والسياق إن كان توصية للمؤمنين، وبيانا لنعمة الله ﷻ عليهم، إلا أن فى طياته تحذيرا لهم من المخالفة، كى لا تحل عليهم اللعنة كما حلت على اليهود، والنصارى "فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم" " ونصب "غَيْرَ

---

١ - نظم الدرر- البقاعى - ٢/ ٣٨٤.

مُحِلِّي الصَّيْدِ" على الحال أدل دليل على أن هذا السياق، وإن كان صريحه مذكرا بالنعمة لتشكر، فهو مشار به إلى التهديد إن كفرت، أى: أحل لكم ذلك فى هذه الحال، فإن تركتموها انتفى الإحلال"([1])

الغرض الأساس فى سياق المائدة هو: تفصيل توصية المؤمنين بالوفاء بالعقود، وأتى حديث اليهود عرضا- بطريق الإجمال- كأنموذج اشتهر بنقضها، ليحذره المؤمنون، لذا كان تكرار الخبر بنقضهم لها، فى سياق السورة: "ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا" مذكرا المؤمنين بقبح هذا الأنموذج من جانب، ومشيرا إلى تأصل هذه الصفة فيه من جانب آخر، مما يلائم تحقيره المستشف من التعبير عنه بضمائر الغيبة، حيث "أعاد الإخبار بأخذ الميثاق عليهم فى آية الشاهد هنا، لزيادة التعجيب من مسارعة أكثرهم فى الكفر، مؤكدا له، أى: لخبر أخذ الميثاق عليهم، تحقيقا لأمره، وتفخيما لشأنه، وساقه على وجه يرد دعواهم البنوة، والمحبة، ملتفتا مع التذكير بأول قصصهم فى هذه السورة إلى أول السورة"أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ" "([2]).

وعليه، كانت صياغة العدول فى المائدة فى أسلوب الخبر، بضمائر الغيبة "فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ" ملائمة سياق السورة، ومقام تذكير المؤمنين بمخالفة اليهود، ليحذروهم، فكما استحضر المضارع حالهم الماضية، واستمرارهم على قتل فريق من أنبيائهم، فقد لفت انتباه المؤمنين- الذين وصوا بالوفاء بالعقود- وأسلاف اليهود، وكل مخاطب بالقرآن، إلى سوء فعلهم، وشناعته، فأشار إلى توبيخهم، وتبكيتهم على فظاعة جرمهم، وأفاد أنهم أقل، وأحقر من أن يذكروا فى مقام يذكر فيه المؤمنون، وسياق تذكير المؤمنين بهذا الأنموذج القبيح يؤيد هذا.

---

١ – يراجع: السابق – ٢ / ٣٨٥ – بتصرف .

٢ – السابق : ٢ / ٥١٠ بتصرف يسير.

كما يؤيده صياغة خبرهم بالاستئناف البيانى، ليثير تشوف النفوس لمعرفة فظاعة جرمهم، فيلائم تحقيرهم بضمائر الغيبة، مرة فى: " كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ.. إلخ" فالجملة" شرطية، مستأنفة، وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الإخبار بأخذ الميثاق، وإرسال الرسل، وجواب الشرط محذوف، كأنه قيل: وماذا فعلوا بالرسل؟ فقيل: كلما جاءهم رسول من أولئك الرسل بما لا تحبه أنفسهم المنهمكة فى الغى، والفساد، من الأحكام الحقة، والشرائع، عصوه، وعادوه" (١)

وأخرى فى جملة العدول "فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ" فهى "جواب مستأنف عن استفسار كيفية ما أظهروه من آثار المخالفة المفهومة من الشرطية، على طريقة الإجمال، كأنه قيل: كيف فعلوا بهم؟ فقيل: فريقا منهم كذبوهم من غير أن يتعرضوا لهم بشىء من المضارّ، وفريقا آخر منهم لم يكتفوا بتكذيبهم، بل قتلوهم أيضا، وأوثر المضارع على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها الهائلة، للتعجيب منها، وللتنبيه على أن ذلك ديدنهم المستمر.. وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام به، وتشويق السامع"(٢).

من ثم تكشفت ملاءمة كل أسلوب لسياقه، ومقامه، وغرض الكلام، بما ينفى التكرار، فحينما كان الغرض الأساس فى البقرة عرض قبائح اليهود، وأفظعها استمرارهم فى تقتيل فريق من أنبيائهم، فصل أحوالهم، واستحضرهم موبخا، ومبكتا لهم بالخطاب المباشر، دون التفات إلى فريق الإيمان فيهم، وحينما كان الغرض الأساس فى المائدة توصية المؤمنين بالوفاء بالعقود، جاء حديث اليهود عرضا، فى صياغة مجملة، لعبت ضمائر الغيبة دورا مهما فيها،لأن الغرض عرضهم- كأنموذج قبيح لنقض العقود- أمام المؤمنين، ليحذروا التشبه به، فيفيد توبيخهم على الاستمرار فى تقتيل رسلهم بأسلوب الغيبة، وكأنهم شىء مهمل، لا يعتد به فى ركب الإنسانية.

---

١ – إرشاد العقل السليم – ٢ / ٩٦.

٢ – السابق – الصفحة نفسها.

فى ضوء هذا يستشعر المتلقى سر ترك الإشارة إلى استكبارهم عن قبول دعوة رسلهم، وقد أشار إليها فى البقرة "اسْتَكْبَرْتُمْ" وترك الاستفهام الإنكارى التعجبى من استمرارهم على تلك الحال القبيحة" أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ" كما استفهم فى البقرة، لأن المقصود إهمال هذا النموذج المنحرف، الناقض للعقود، وتخطيه إلى المؤمنين، المستوصين بالوفاء بها فى مطلع السورة.

سياق تفصيل إكرام فريق الإيمان وتعذيب فريق الكفر

"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ*" [الحج : ٢٥].

ورد التعبير بالمضارع "وَيَصُدُّونَ" عقب الماضى "كَفَرُوا" فى سياق يفصل تكريم فريق الإيمان، وتعذيب فريق الكفر، بعد بيان أن أمر الحكم بين الملل يوم القيامة موكل إلى الله ﷻ: "إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ" [الحج: ١٧](١).

فقد بين خضوع جميع الكائنات سجودا لخالقها بالفطرة السوية، وأن هناك من انحرف عنها فحق عليه العذاب، فى قوله ﷻ:"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [الحج:١٨] " تنبيها من رؤية القلب، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله، كما ذكر فيها جميع ما عبد الناس". (٢)

١ – التحرير والتنوير – ٧ / ٢٢٣.
٢ – يراجع: السابق – ٧ / ٢٣١.

ثم جاء قوله:"هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" "إجابة عن سؤال مقدر بالاستئناف البيانى، لتهويل حال استمرار الكافرين على صدهم عن سبيل الله " فقوله:" وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ " يثير سؤال من يسأل عن بعض تفصيل صفة العذاب، الذى حق على كثير من الناس، الذين لم يسجدوا لله ﷻ فجاءت هذه الجملة لتفصيل ذلك، فهى استئناف بيانى، واسم الإشارة المثنى فى قوله:"هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ" يشير إلى ما يقتضيه قوله:" وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ" من انقسام المذكورين إلى فريقين: أهل توحيد، وأهل شرك، واسم الإشارة القريب قد جسّد الفريقين، وجعلهما بمنزلة ما يشاهد بالعين" (١).

فى هذا السياق ورد العدول إلى المضارع فأفاد استمرار أجيال الكافرين على صدهم عن سبيل الله، والمسجد الحرام، أما حدث كفرهم فثابت، كأنما صار لهم سجية، وطبعا، فقال:" "وَيَصُدُّونَ" للدلالة على تكرر ذلك منهم، وأنه دأبهم، سواء فيه أهل مكة، وغيرهم، لأن البقية ظاهروهم على ذلك الصد، ووافقوهم، أما صيغة الماضى فى قوله:"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوْا"" فلأن ذلك الفعل صار كاللقب لهم، مثل قوله: "إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آَمَنُوْا" ..."(٢).

وقد أشار أغلب المفسرين، والبلاغيين إلى لمحات تستشف من التعبير بالمضارع، تؤصل لاستمرار الكافرين على حال صدهم هذا، منها:

أن زمن الفعل فى سياقه هذا لا يراد به الحال، أو الاستقبال، بل المراد به الاستمرار، ليعكس عنادا طمس نور التوحيد فى قلوبهم، يلائم تهويل استمرار صدهم عن سبيل الله، كما " يقال: فلان يُحسن إلى الفقراء، ويعين الضعفاء، فلا يراد به حال، ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته، وأوقاته، فكأنه قيل: إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن

١- التحرير والتنوير - ٧ / ٢٢٨.
٢ - السابق - ٧ / ٢٣٦.

سبيل الله، ونظيره قوله:"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ" [الرعد:٢٨][١].

وأن في التعبير به تقريرا لتجدد صدهم عن سبيل الله، وإشعارا بالتكثير لا يتأتى في التعبير بالماضي "والحكمة في هذا أن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه، عبّر بالماضي ليفيد ذلك، مع كونه نافياً أنه قد مضى عليه زمان، ولا كذلك الصد عن سبيل الله، فإن حكمه إنما ثبت حال حصوله، مع أن في الفعل المستقبل إشعاراً بالتكثير، فيُشعر قوله: "وَيَصُدُّوْنَ" أنهم في كل وقت بصدد ذلك، ولو قال: صدوا لأشعر بانقطاع صدهم"[٢].

أفاد التعبير بالمضارع أن الصد عن سبيل الله ﷻ صار بمعنى الصفة اللازمة لهم، واللقب لا يفارقهم، ولا يفارقونه "وإذا كان ذلك معنى الكلام لم يكن إلاّ بلفظ الاسم، أو الاستقبال، ولا يكون بلفظ الماضي، وإذا كان ذلك، فمعنى الكلام: إن الذين كفروا من صفتهم الصدُ عن سبيل الله" [٣].

وقيل: إنه "مضارع أريد به الماضي، عطفا على "الذين كفروا" وقيل: هو على إضمار مبتدأ: أي: وهم يصدون"([٤])

من ثم حسن عطفه على الماضي "الَّذِينَ كَفَرُوْا" لإفادته المقابلة بين استمرار انحرافهم بتجدد صدهم عن سبيل الله، وعن المسجد الحرام، وبين استمرار اعتدال المؤمنين، وطمأنينة قلوبهم بذكر الله بتجدد استقامتهم على التوحيد، في قوله:"الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ"[الرعد:٢٨]([٥]).

---

١ – مفاتيح الغيب – ٢٣ / ٢١٦

٢ – مفاتيح الغيب ٢١٦/٢٣.

٣ – جامع البيان ١٣٨/١٧.

٤ – البحر المحيط ٣٣٦/٦.

٥ – يراجع: المحرر الوجيز – ٤ /١١٥ .

وسياق السورة يركز على هذه المقابلة، فيؤكد إشارة المضارع إلى إهانتهم فى مقابل تكريم المؤمنين، ترى ذلك فى أسلوبى احتباك يشيران إلى تمام قدرته ﷻ على تكريم الساجدين، المنقادين له، وإهانة المنحرفين المستمرين على الصد عن سبيله، فى قوله:"ﷻ :"أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ.. إلى قوله:" وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ" حيث ذكر السجود فى الأول دون الثانى، وذكر العذاب فى الثانى دون الأول، وفى قوله: " وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ" حيث ذكر ما لفريق المستمرين على الصد عن سبيله من إهانة، وسكت عن ما لفريق الساجدين المنقادين له ﷻ من تكريم" (١).

كما تراه فى صياغة مشهد من مشاهد تكريم المؤمنين- فى خضم سياق عذاب الكافرين- يؤكد دخولهم الجنة، بإسناد الفعل إلى اسم الله الأعظم" إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ[الحج:٢٣] فهو الذى يدخلهم الجنة بذاته ﷻ، وفيه من تكريم المؤمنين ما فيه، مقابلا ما فيه من إذلال الكافرين، وإهانتهم.

كأنما يعمد البيان إلى مشهد تكريم المؤمنين بقصد إيلام الكافرين- نفسيا ومعنويا- حين يتقلبون فى أنواع العذاب المادى "فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ* يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ* وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ*[الحج:١٩-٢٢]..إلخ" وفى خضم هذا العذاب أتى تكريم المؤمنين ليضيف لهم عذابا

١ – يراجع: نظم الدرر – ١٣ /٢٧ – بتصرف.

معنويا، هو أقسى، وأفظع على أنفسهم من العذاب المادى، وكثيرا ما تجد تلك الصياغة فى سياقات عذاب الكافرين([1])

وأخيرا، جاءت صياغة المضارع فى هذا السياق كأنها شرط فى كفرهم ما استمروا عليه، لتفيد رحمة الله بهم، ترغيبا لهم فى صراط الحميد، الذى هدى إليه المؤمنون من جانب، وترهيبا من الانحراف عنه من جانب آخر، وفيها إشارة إلى أن العبد- ولو كان كافرا- ما يزال عرضة لنفحات رحمة ربه ﷻ ما لم يغرغر " فلعله عبر بالمضارع رحمة منه لهم، ليكون كالشرط فى الكفر، فيدل على أن من ترك الصد زال عنه الكفر، وإن طال ذلك منه" ([2])

سياق التدليل على البعث بإحياء الأرض الموات

"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ" [فاطر: ٩].

ورد التعبير بالمضارع " فَتُثِيرُ سَحَاباً" عدولا عن الماضى" أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" تدليلا على كمال القدرة الإلهية على الإعادة، وأنها أهون على الله ﷻ من الابتداء، فى سياق الرد على منكرى البعث، فجاء ملائما مقصود سورة (فاطر) وسياق الرد على منكرى البعث، أما عن ملاءمته مقصود السورة- الذى هو "إثبات القدرة الكاملة لله ﷻ اللازم منها تمام القدرة على البعث- "فقد تجردت السورة للتعريف بالابتداءات المبرزة الاختراع، والخلق، بما يمكِّن لتمام القدرة، ومنها عجيب القدرة فى إثارة الريح للسحاب، وتجددها بتجدد دواعيها "فتثير سحابا"([3])

---

١ – يراجع: الكشاف – ٣ / ٢١٨ والنظم الترتيبى لصفات فلاح المؤمنين فى المعقد الأول من سورة (المؤمنون)- ص ١١٥٢، ١١٥٣- للباحث- حولية قطاع كليات اللغة العربية –عدد ٤- ٢٠٠٩.

٢ – نظم الدرر – ٥ / ١٤٥ والطراز للعلوى – ٢٦٨ وإرشاد العقل السليم ٤/ ٢٠ والكشاف ١٨٤/٤.

٣ – نظم الدرر – ١٦/ ١و ٥ – بتصرف يسير.

وهذه الصورة العجيبة– التى صورها المضارع – ترتبط بسياق الدلالة على الإيجاد من العدم فى الماضى"أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" وهى صورة حسية، يستحضرها البيان أمام المتلقى دليلا على قدرته ﷻ على البعث، استحضارا للحال الماضية، واستمرارية فعل إثارة الرياح للسحاب(١)

وعن ملاءمته لسياق الكلام، فالمخاطبون بها منكرون للبعث، لا يؤمنون إلا بالمحسوس، لذا ناسب حالهم التعبير بالمضارع، استحضارا لتلك الصورة العجيبة، وإبرازا لتجدد فعل إثارة الرياح للسحاب، بإحداثها تلك الخاصية بيانا لكمال القدرة، لذا أسند إليها فعل الإثارة " لتحكى الحال التي تقع فيها، وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بكل فعل فيه نوع تمييز، وخصوصية، بحال تستغرب، أو تهم المخاطب" (٢)

وجاء عطف المضارع " فَتُثِيرُ"على الماضى "أَرْسَلَ" مقويا استحضار الصورة الماضية، لأن إثارة الرياح للسحاب أثر من آثار إرسالها، المعبر عنه بالماضى، مسندا إلى الله ﷻ مؤكدا بالقصر فى تقديم المسند إليه "وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" ثم عطف عليه فعل إثارة الرياح للسحاب، عدولا إلى المضارع " فَتُثِيرُ سَحَاباً" بالمخالفة فى الإسناد، فكان فاعل الإرسال الضمير العائد إلى(الله) ﷻ وفاعل الإثارة "الرِّيَاحَ" ليلائم التدليل على كمال القدرة الإلهية، وحال منكرى البعث، الذين لا يؤمنون إلا بالصورة الحسية، فاستحضرها المضارع بهذه الخاصية "والمعنى: الله الذى أحدث الرياح لأجل هذه الخاصية، التى ترى الآن"(٣)

وقد أحدثت مخالفة الإسناد فى الفعلين"أَرْسَلَ"و"تُثِيرُ" تقابلا بين صورتين: صورة البعث، وهى غيبية، ينكرها المنكرون، وصورة إثارة الرياح للسحاب، وهى حسية لا ينكرها أحد، لذا جاءت تدليلا على إمكانية الأولى،

---

١ – السابق – ١٦ / ١٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٧/١٤. وإرشاد العقل السليم – ٤/ ٤٧٤.

٣ – تفسير البيضاوى – ٢ / ٢٦٨.

وتقريبا لصورة البعث للمنكرين، فكان العدول إلى المضارع – بما فيه من استمرار حدث الإثارة بهذه الخاصية– مقويا صورة البعث، ومؤكدا زيغ المنكرين له عن الحق الواضح، فالصورة الحسية تتكرر أمامهم، ولا تسترعى أفكارهم.

وجاء التعبير بالسحاب فى قوله:"فَتُثِيرُ سَحَاباً" على حقيقته، أما الضمير العائد إليه فى الالتفات بإسناد فعلى سوقه إلى البلد الميت، وإحياء الأرض به، إلى الله ﷻ فى قوله:"فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا" فعلى المجاز المرسل لعلاقة السببية، لأن الذى يساق إلى البلد الميت، والذى تحيا به الأرض حقيقة هو المطر، وليس السحاب، وفى هذا المجاز خيال لطيف، لتصويره رحلة إلى الماضى، لاءمت استحضار الحال العجيبة الماضية.

كما نبه إلى عظمة القدرة الإلهية فى تصريف هذه الحال حين التفت من الغيبة فى: "أرسل" إلى التكلم بنون العظمة فى :" فَسُقْنَاهُ " و"أَحْيَيْنَا " لأن "سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض الميتة به، لما كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل:" :" فَسُقْنَاهُ " و" أَحْيَيْنَا " عدولاً بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص، وأدل عليه"[1]

وقد كونت الأفعال "أَرْسَلَ- فَتُثِيرُ- "فَسُقْنَاهُ- أَحْيَيْنَا" صورة المشبه وجاء المضارع المعبر عن الصورة الحسية "فَتُثِيرُ سَحَاباً" وسطاً بين "أَرْسَلَ" و"فَسُقْنَاهُ" و"أَحْيَيْنَا" فكان إشارة إلى أن إثارة الرياح للسحاب بهذه الخاصية موصولة بعجيب قدرته ﷻ على البعث، كما تجلى تمام القدرة الإلهية فى صياغة المشبه على درجات، وظف كل فعل لبيان درجة منها.

---

١ – الجامع لأحكام القرآن: ٣٢٧/١٤.

فلما "كان المراد الإيجاد من العدم عبر بالماضي مسنداً إليه ﷻ لأنه الفاعل الحقيقي، فقال: "أَرْسَلَ الرِّيَاحَ" أي: أوجدها من العدم مضطربة، فيها أهلية الاضطراب، والسير، ليصرّفها كيف يشاء"[1]

ولما كان المراد اللفت إلى قِصَر نظر منكرى البعث عند الصورة الحسية عدل إلى المضارع، وأسند الفعل إلى الرياح، لأنها السبب، ولأن إثارتها تتجدد أمامهم، تدل بوضوح على تمام القدرة ،فاستحضرها حكاية للحال الماضية.

ولما كان تمام القدرة الإلهية فى سوق السحاب إلى البلد الميت، وإحياء الأرض به، التفت من الغيبة إلى التكلم، فقال:"فَسُقْنَاهُ" و"أَحْيَيْنَا" معبرا بنون العظمة، والغرض تقريب صورة البعث لأذهان منكريه، فكان الالتفات تكميلا لصورة المشبه، وأنه كما تحيا الأرض الموات بهذه الصورة الحسية، موصولة بقدرة الله ﷻ فكذلك إحياء الأموات، وإسناد الفعلين "إلى نون العظمة، المنبىء عن اختصاصهما به ﷻ لما فيهما من مزيد الصنع، ولتكميل المماثلة بين إحياء الأرض وبين البعث، الذى شبه به بقوله:"كَذَٰلِكَ النُّشُورُ" أى: مثل ذلك الإحياء الذى تشاهدونه إحياء الأموات، فى صحة المقدورية، وسهولة التأتى، من غير تفاوت بينهما أصلا، سوى الإلف فى الأول، دون الثانى، أو فى الكيفية"([2])

من ثم فإن معالجة أسلوب العدول بعيدا عن سياقه، أو مبتورا من صورة التشبيه تنأى به عن الغرض، وهو التدليل على البعث بالصورة الحسية، التى استحضرها المضارع بحكاية الحال الماضية، فكانت ملائمة له، لأنها جزء من التشبيه تعاون مع غيره لتجلية هذا الغرض.

سياق مدح المؤمنين بتعظيم شعائر الله

---

١ – نظم الدرر: ١٦/١٦.

٢ – إرشاد العقل السليم – ٤ / ٤٧٥ وروح المعانى ٢٢ / ١٧٢ وتفسير الشعراوى ٢٠ / ٢٤١.

"حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ" [الحج: ٣١].

ورد المضارع " فَتَخْطَفُهُ- تَهْوِي" عدولا عن الماضى "خَرَّ" فكان تصويرا لعاقبة الشرك، بغرض إظهار قبحه، فى سياق ممتد يمدح المؤمنين بتعظيم حرمات الله ﷻ وبالثبات على الحنيفية، لذا أمرهم باجتناب ما ينافيها بقوله: فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ"[٣٠] خروجا بالأمر عن حقيقته لغرض إلهاب مشاعرهم، وتهييجها، كى يثبتوا عليها، ثم أثبتها لهم، ونفى الشرك عنهم "حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ"

يبدأ السياق من التذكير بدعائم الحنيفية، مُهِّدَ لإرسائها على يد إبراهيم عليه السلام:"وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ" [٢٦] وأمر الله ﷻ له أن يؤذن فى الناس بالحج:"وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ"[٢٧] ويستمر إلى أن يأمر المؤمنين باجتناب ما ينافيها، فألهب مشاعرهم للثبات عليها، ثم أثبتها لهم، ونفى الشرك عنهم، وفى قوله:"الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ" تجريد يصور قبح الشرك، حيث "جُرِّدَ من الرجس شَيْءٌ يسمى وثنا، وهو هو، والجهة الجامعة تنفير النفس"(١).

جاء العدول إلى المضارع- فى هذا السياق فى صورة تشبيهية:"فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ"- فكان تصويرا لقبح الانحراف عن ملة إبراهيم عليه السلام وتعميقا لمدح المؤمنين بالثبات عليها، فكان تعظيما للإيمان، وتفظيعا لقبح الشرك.

كما كان التشبيه عرضا مفصلاً نفس المشرك- قد توزعتها الأهواء والضلالات- فأفاد هذا التشتت، والانحراف العقدى، مقابلا باطمئنان نفوس المؤمنين المأمورين باجتناب الرجس من الأوثان، واجتناب قول الزور، إلهابا،

---

١ - حاشية الطيبى – ٧ / ١٧٠.

وتهييجا لنفوسهم للثبات على الحنيفية، وتنفيرا من نموذج الشرك المنحرف عنها، ويؤيده أن "معنى "حُنَفَاءَ" مستقيمين، أو مائلين إلى الحق، بحسب أن لفظة الحَنَف من الأضداد، تقع على الاستقامة، وتقع على الميل"(١)

تركز كلام المفسرين على دور التشبيه فى تصوير حال هلاك المشرك، دون ذكر لدور المضارع فيه، فقيل: إنه من التشبيه المركب، بأن صور حال هلاكه بصورة حال من خر من السماء، فاختطفته الطير، فتفرق مزعا فى حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطارح البعيدة، وقيل: إنه من المفرق، بأن شبه الإيمان بالسماء، والشرك بالحضيض الذى يهوى إليه، اعتمادا على تشبيه الأهواء المردية التى تتوزع أفكاره بالطير المتخطفة، وتشبيه الشيطان الذى يطوح به فى وديان الضلالات، بالريح التى تقذف به فى الوديان السحيقة(٢)

وعلى الرغم من هذا، فإن التعبير بالمضارع قد حول مسار الأحداث، فأفاد استحضار حال المشرك بالصورة التشبيهية، فهو جزء من مكوناتها، له دوره فى تفظيع صورة هلاك المشرك نفسيا، صوَّره يحيا تشتتا نفسيا، وتخبطا فكريا، فى صورتيه السابقتين، ولا منقذ له إلا الارتفاع عن حضيض الشرك إلى سماء الإيمان، استحضار هذه الصورة أمام المخاطبين يلائم غرض الكلام، ويلائم سياق حث المؤمنين للثبات على الحنيفية، المنافية للإشراك، لأن "جملة "وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ" مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الإشراك، فى قوله: "فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ" كما أن التعبير بالاسم الجليل"وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ" بوضع الظاهر محل الضمير، لإظهار كمال قبح الإشراك "(٣)

---

١ – المحرر الوجيز – ٤/ ١٢٠.

٢ – يراجع: الكشاف ٤/ ١٩١ والبحر المحيط ٦ /٣٤٠ وروح المعانى ١٧/ ١٤٩ وحاشية شيخ زادة ٣/ ٣٨٢ والتحرير والتنوير ١٧/ ٢٥٤ والشعراوى ١٦/ ١٧٥ .

٣ – إرشاد العقل السليم – ٤/ ٢٤ – بتصرف.

وجاء تصوير هلاك المشرك على درجات، صورتها الأفعال، صيغت أولى درجاته فى صورة الماضى "خَرَّ" مسندا إلى الضمير العائد على المشرك، فأفادت انتهاء حدث سقوطه، وأنه كان من عُلوٍّ، والأهم منه أنه سمع لسقوطه صوت كخرير الماء، وإلا كان التعبير بـ (سقط) فمعنى"خَرَّ" سقط سقوطاً يُسمعُ منه خرير، والخريرُ يقال لصوت الماء، والريح، وغيرِ ذلك مما يسقط من علوٍ"(٢).

فإسناد الفعل إلى ضمير المشرك يوحى باختياره الشرك لنفسه، فسقط من علو ضياء الإيمان إلى حضيض ظلام الشرك، كأنما اختار هلاكه بصورة السقوط هذه، لأن الفعل "خَرَّ" يعتد فيه بصوت السقوط، فيوحى بأنه لا يملك دفع ضر، أو عذاب عن نفسه، مما له دور فى تفظيع الصورة، كما يوحى بـ "سرعة الحركةِ مع عُنفها، وتعاقب خطواتها، وفي المنظرِ سرعةُ الاختفاء"(٥).

ثم عدل إلى المضارع"فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ"ليسلمه إلى صورتين من الهلاك، وكلتيهما تلائم غرض إظهار قبح هذا النموذج المنحرف عن الحنيفية، وتفظيع صورته أمام المؤمنين الثابتين عليها، مما يجعل دلالة المضارع على استحضار حال المشرك هذه ملائمة غرض الكلام، كما يدعو إليها السياق، خاصة أن "أَوْ" – عند أغلبهم– للتخيير.

من ثم، يكون عطف الصورتين"فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ" على الماضى "خَرَّ" مقويا لإظهار كمال قبح صورة المشرك، استحضارا لحاله العجيبة أمام المخاطبين، للتعجيب منها "والذى عليه ظاهر الكلام أن "أو" للتخيير، وهو المختار، لأن المشبه هو المشرك، والمشبه به من خر من السماء، ثم هذا المخرور منها بين حالين: إما أن تخطفه الطير، أو تهوى به الريح، وعطف "أَوْ تَهْوِي بِهِ" على " "تَخْطَفُهُ" وهو عطف على "خَرَّ" قال أبو البقاء: "خَرَّ" بمعنى: يخرّ، ولذلك عطف عليه "فتخطفه"

---

٢ – المفردات في غريب القرآن .١٤٤

٥ – في ظلال القرآن ٩٠/١٧.

وقلت: في إيثار المضارع إشعار باستحضار تلك الحال العجيبة في مشاهد المخاطب، تعجيبا له"(١)

****

١ – حاشية الطيبي – ٧/ ١٧٢ .

المبحث الثانى: العدول إلي الماضى

ورد العدول إلى الماضى فى البيان القرآنى كثيرا فى تصوير مشاهد القيامة، لغرضين: أحدهما: ترهيب الكافرين ليرتدعوا عن غيهم، والآخر: ترغيب المؤمنين لتطمئن نفوسهم بما وعدهم الله ﷻ فيزدادوا إقبالا على الطاعات، يعدل إلى الماضى- فى صياغة المشاهد التى لم تحدث- لينقل لنا الصورة المستقبلة كأنها وقعت وتحققت، يراها المقصر فتنمى فى نفسه جانب الخوف من العقاب، ويراها المؤمن فيزداد إيمانا، ورغبة فى عطاء ربه ﷻ .

والملاحظ أنه أكثر ما يرد العدول إلى الماضى فى عرض مشاهد القيامة ردا على المشركين، ومنكرى البعث، وتدليلا على بيان قدرته ﷻ على الإعادة، وأنها أهون من البدأ، وكثيرا ما يرد فى صورة مفردة (فعل واحد، أو اثنين) وأحيانا تغص بالأفعال الماضية لوحة كاملة، مشكلة عمد البيان فيها، عارضة أغلب مشاهد القيامة متتابعة، منها: تلك التى فى سورة (ق) وفى خاتمة سورة (الزمر) لنبدأ بنماذج للعدول إلى الماضى فى صورة مفردة، ثم نثنى بالعدول فى صورة اللوحة المتكاملة، التى تتابع فيها الأفعال تتابعا شديدا، وملاءمة كل لسياقه، وغرض الكلام.

أولا: العدول إلي الماضى فى صورة مفردة

وقد صور هذا الأسلوب مشاهد القيامة فى سياقات، أبرزها: تسلية رسول الله ﷺ وتصبيره على إيذاء قومه، والرد على المشركين، ومنكرى البعث بتحقق عذابهم بتحقق ما أنكروه، ولتعدد صور العدول تبعا لتعدد صور الرد عليهم، اختيرت عدة صور تبرز ذلك إحداها: لتصوير فزع الخلائق من آثار النفخ فى الصور، وأخرى لتصوير وقوع القول على المشركين بظلمهم، وثالثة لتصوير وجوههم الكريمة قد كبت فى النار، ورابعة لتصوير حشرهم أذلاء، وخامسة لتصوير عرضهم صفا أمام رب محمد ﷺ ورب الأرباب.

صورة فزع من فى السماوات ومن فى الأرض

وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ [النمل : ٨٧]

عدل البيان إلى الماضى "فَزِعَ" وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالمضارع (يفزع) ليتسق مع ما قبله"يُنْفَخُ"وقد ورد هذا فى سياق ممتد تلاء م وغرضى السورة، والكلام، كما ورد فى موضعين: أحدهما: قبله فى قوله: "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا" والآخر: بعده فى قوله: " وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (النمل:٩٠) فكان فى كل موضع تصويرا لمشهد من مشاهد القيامة التى لم تحدث، مؤكدا حدوثه باستحضار الصورة المستقبلة، مما له دور فى غرض الكلام (تسلية الرسول ﷺ وتفظيع عذاب المشركين، ومنكرى البعث).

جاء أسلوب العدول ملائما مقصود سورة (النمل) فمن أغراضها "بشارة المؤمنين، ونذارة الكافرين بيوم اجتماع الأولين، والآخرين، وتسلية الرسول ﷺ بإنجاز وعده ﷻ له بالنصر، ووعيد من حادوا عن هدى الكتاب بالعذاب"(١).

أما عن ملاءمته غرض الكلام، فالأسلوب- بصوره الثلاث- وعيد لمن حاد عن هدى القرآن، ووعد لرسول الله ﷺ بالنصر، وتسلية له، يعرض السياق موقف بعض الأمم من أنبيائهم، مختتما بهلاك المكذبين منهم، ونجاة المؤمنين "فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ* وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَراً فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ" يتلوه أمره ﷻ نبيه ﷺ أن يحمده على التوحيد، ويسلم على عباده المصطفين "قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى" وأن يستفهم من المشركين- إجمالا- عن أى المنهجين خير؟ موهما خيرية بينهما، بغرض الإلجاء، والإلزام، والتنبيه على الخطأ، والتهكم بهم، والتبكيت، فقال: "آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ"(٢).

---

١ – يراجع: نظم الدرر – ١٤/ ١٢١ ، ٢٢٩ – بتصرف.

٢ – الكشاف – ٤ / ٣٦٣ والتحرير والتنوير – ٢٠ /٩ .

ثم فصل ذلك فى استفهامات تقريرية، متتالية، مشوبة بالتوبيخ، تعدد المنافع والخيرات، التى هى آثار رحمة الله ﷻ فاستفهم عن الذى خلق السماوات والأرض، وعن الذى أنزل لهم من السماء ماء..إلخ، ليقررهم فى النهاية بأنه لا إله مع الله ﷻ وإنما هم قوم يعدلون عن هذه الحقيقة، أو يعدلون بالله ﷻ غيره "أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ*".

ثم قررهم بحقيقة التوحيد، مبكتا لهم على إغراضهم عنها (أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ)، متحديا لهم الإتيان بدليل يصدق انحرافهم "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ" ليخلص إلى قصر علم الغيب عليه ﷻ ونفيه عن غيره "قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ" نافيا شعورهم بوقت مبعثهم "وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُون" ومقررا شكهم فى أمر الآخرة، مضربا عنه إلى تأكيد عمايتهم عنها "بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمِونَ" ثم انتقل إلى تماديهم فى إنكار البعث، واستبطائهم الوعيد به، معبرين عنه بالوعد"وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"

ويستمر فى تبكيتهم بما يبرز غرض الكلام(وعيدهم بالعذاب، وتسلية الرسول ﷺ) ترى ذلك فى أمرهم بالسير فى الأرض لينظروا عاقبة المجرمين "قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ" وفى نهيه ﷺ عن الحزن عليهم، وأن لا تضيق نفسه بمكرهم "وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ" وفى أمره بالرد على استبطائهم العذاب باقتراب تحققه لهم فى غزوة بدر، فعبر بالماضى "رَدِفَ" فى قوله: "قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ" لأن "عسى، ولعل، وسوف، فى كلام الملوك بمنزلة الجزم بها، وعلى ذلك جرى وعد الله ﷻ

ووعيده، وإيثار الماضى "رَدِفَ" على المضارع، بأن يقال: عسى أن يردفكم، لكونه أدل على تحقق الوعد، والوعيد"([1]).

ثم انتقل من أسلوب الإنشاء فى الاستفهام، والأمر، والنهى- والتى كان غرضها توبيخهم، وإلجاءهم إلى الإقرار بحقيقتى التوحيد، والبعث- إلى أسلوب الخبر لتأكيد عدة حقائق، تشير إلى هاتين الحقيقتين، فكان تنويعا، وتفننا فى أساليب الأداء، برز دوره فى تسلية الرسول ﷺ والتذكير بالآخرة، ليخلص منه إلى تصوير مشاهدها بالعدول إلى الماضى، مما يلائم غرض الكلام.

فتراه يقرر فضل الله ﷻ على الناس، مستدركا بنفى الشكر عن أكثرهم "وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ" يتلوه بتقرير علمه ﷻ بما تكن صدور المشركين، وما يعلنون "وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ" ثم يتبعه تقرير حفظه كل غائبة فى السماء والأرض، بقصر ذلك على كونها فى كتاب مبين "وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" ثم يخاطب رسوله ﷺ أنه ﷻ يقضى بين المختلفين من بنى إسرائيل بحكمه، بإضافة كاف الخطاب العائدة إلى الرسول ﷺ إضافة تشريف، تعكس تسليته "إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ" ثم تقرير كونه ﷺ على الحق المبين، من ثم أمره بالتوكل عليه ﷻ مظهرا الاسم الجليل، تسلية وتثبيتا لرسوله ﷺ "فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ".

ثم تابع السياق فقسم الناس إلى معرض عن الهدى، ومستجيب له، مبينا مهمة الرسول ﷺ بقصرها على البلاغ، مؤكدا له ﷺ نفى إسماعه الموتى، ونفى إسماعه الصم، ونفى هدايته العمى، ثم قصر إسماعه على الذين يؤمنون بآيات الله ﷻ: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ

---

١ – إرشاد العقل السليم – ٤ / ٢٧٨ – بتصرف يسير.

الـدُّعَاء إِذَا وَلَّـوْا مُـدْبِرِينَ*وَمَا أَنـتَ بِهَـادِي الْعُمْـيِ عَـن ضَـلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ".

صورة وقوع القول عليهم بظلمهم

سوغ التقسيم السابق الانتقال إلى وعيد المشركين بقرب مشاهد القيامة، ومنها إخراج دابة الأرض، معبرا عنه بالماضى، وهو لم يقع، فأشعر بتحقق وقوع ما أنكروه، ولاءم غرض الكلام "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ" لأن جملة "وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ" معطوفة على ما قبلها عطف قصة على قصة "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا" الماضى مستعمل فى المضارع"([1]).

بمعنى: أن الماضى "وقع" فى حيز"إذا" لتقريب زمن الحال من المضى، وفى قوله: "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا" إما على حقيقته للتهويل، أو معدولا به عن المستقبل، كأنه حدث وانتهى"([2])

من ثم كان التعبير بالماضى فى"أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ" ملائما أسلوب العدول "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا" لتقرير، وتحقيق وعيدهم بالعذاب" لأن إخراج الدابة من الأرض قرب القيامة رمز لبعث الخلائق منها"([3]).

وجاء اسم الإشارة الأول فى قولهم:"لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" مقدما على "نحن" فلاءم تماديهم فى إنكار البعث، وأفاد أنه فى نظرهم هنا أبعد، لأن الإنكار منصب على كونهم وآبائهم ترابا: " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ" أما فى (المؤمنون) فقد تأخر اسم الإشارة عن "نحن" فى قولهم: "لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" لأن الإنكار منصب على

---

١ – التحرير والتنوير – ٢٠ / ٣٨– ٤٢– بتصرف.

٢ – التحرير والتنوير – ٢٠ / ٣٨ ، ٤٢ و فى ظلال القرآن – ٥ / ٢٦٦٧.

٣ – روح المعانى – ٢٠ / ٢٤ .

كونهم هم فقط ترابا، وعظاما: "قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ" (١).

ولا شك أن إنكار البعث حين كونهم وآبائهم ترابا، أشد، وأبعد من إنكاره له حين كونهم هم فقط ترابا، وعظاما، فلما كان قولهم أشد فى استبعاد البعث ناسبه الماضى، لأنه أشد حسما، وتحقيقا، وكأنه ينطق بأن: ما تماديتم فى إنكاره، واستبعاده، قد تحقق، وفرغ منه "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا".

كما لاءم هذا التأكيد، والحسم، سياق تسلية الرسول ﷺ عن عدم إيمانهم به، فقد تمادوا فى إنكار البعث، واستبطأوا الوعيد عليه فى قولهم: "وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ.." "فأشار إلى أن من أشرك مع الله ﷻ غيره، وتمادى فى إنكار البعث قد قطع بوقوع عذابه، وكأنه حدث قد فرغ منه"(٢).

عود إلي صورة فزع من فى السماوات ومن فى الأرض

وإذا كان العدول فى صورة "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا" لافتا إلى تذكير المكذبين بيوم حشرهم خاصة "وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ" فإنه فى صورة "وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ" جاء لافتا إلى تذكير الناس بيوم حشر جميع الخلائق(٣).

يؤيد ذلك "أن آية "وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ" "معطوفة على آية "وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا" بتقدير: اذكر يوم نحشر، واذكر قبله يوم ينفخ فى الصور، تسجيلا على المكذبين بإثبات وقوع البعث، وغيره من المشاهد التى أنكروها... والمقصود بالنفخة هنا هى النفخة الثانية، التى يحصل بعدها فزع الخلائق، لذا فرع عليه قوله:" فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ" أى: عقبه حصول الفزع، وهو الخوف من

١ – يراجع: الكشاف – ٤ / ٤٦٩ والتحرير والتنوير – ٢٠ / ٢٥.
٢ – الكشاف – ٤ / ٤٧٦.
٣ – الكشاف – ٤/٤٦٣ و التحرير والتنوير – ٢٠ / ٣٩.

عاقبة الحساب، ومشاهدة معدات العذاب، فكل أحد يخشى أن يكون معذبا، فالفزع حاصل مما بعد النفخة، وليس هو فزعا من النفخة، لأن الناس حين النفخة أموات"([1]).

من ثم جاء العدول عن (يفزع) إلى "فَزِعَ" ملائما ترهيب كل الخلائق من هول الموقف، ومذكرا المنصرف عن القيامة، ومقررا عذاب فزع المشرك، ومنكر البعث، وأنه بات واقعا محققا، وفيه من التعريض بعذاب المشركين، ومنكرى البعث ما فيه، فليس أشد فى التخويف من أن تعرض صورة العذاب المستقبلة فى صورة الماضى، إشعارا بتحقق الفزع وثبوته"([2]).

وقد خيَّل العدول إلى الماضى بأن صورة الفزع المنتظر وقوعها قد طوى زمنها، فعادت بالمتلقى من المستقبل البعيد إلى الماضى االمحقق، وهذا أبلغ فى التذكير، والترهيب " وآكد، وأعظم موقعا فى النفس، لدلالته على تحقق الوقوع، وكينونة الحدث الملتقط من المستقبل البعيد، وقد طوى زمنه ليظهر ظهورا ماضويا، يعيشه الإنسان تاريخا ينفعل به، ويتأثر، ويطرح عن نفسه الشك فى وقوعه، بل يعيش الوقوع، وأثره على نفسه"([3])

كما أفاد تنويعا فى أساليب الأداء، يشير إلى تمام الثقة بتحقق الوقوع، فلاءم تسلية الرسول ﷺ ووعيد منكرى البعث بالعذاب، ولفت المنصرف عن القيامة، "لتضمنه تأكيد أن أمر الفزع الذى سيحدث مستقبلا هو بقوة الأمر الذى حدث فى الماضى، إذ مجيئه فى المستقبل حتمى، وحتمية وقوعه فى المستقبل تسمح بالتحدث عنه بصيغة الفعل الماضى، كما يقول الماهر بالصيد

---

١ – يراجع: التحرير والتنوير – ٢٠ / ٤٥– ٤٦ – بتصرف يسير.

٢ – الكشاف – ٤/ ٤ – نظم الدرر – ١٤/ ٢٢١– وحاشية القونوى – ١٤/ ٤٥٢.

٣ – التصوير المجازى والكنائى – د/ لصلاح غراب – ٨٦ – بتصرف يسير.

إذا أطلق قذيفة مسددة إلى الهدف بدقة تامة:(لقد أصابت الهدف) مع أنها مازالت تسير فى الجو، لم تصل إلى الهدف"([1]).

صورة وجوه الكفار قد كبت فى النار

"وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ*" [النمل: ٩٠]

فى السياق ذاته ينتقل البيان لتصوير مشهد كب وجوه الكفار فى النار، عادلا عن المضارع (فتكب) إلى الماضى "فَكُبَّتْ" من خلال المقابلة بين جزاء من آمن "مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ" وعقاب من كفر، وأنكر البعث، وغيره من مشاهد القيامة "وَمَن جَاء بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ" "والآيتان بيان لجملة "وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ" "([2]).

جاءت صياغة المقابلة مشعرة بتحقق حدث كب وجوه الكفار فى النار، وأنه قد فرغ منه، مقابلا فوز المؤمنين بالنعيم المقيم، وتأمينهم فزع هذا اليوم، فأفسحت للذهن تأمل إيذاء الكفار نفسيا، وبدنيا، كما كان لصياغة الآيتين فى صورة الشرط وجوابه دور فى تقوية تحقق الحدث، وأنه لا مجال للشك فيه، فأفادت ارتباط الجزاء بالعمل ارتباط جواب الشرط بفعله.

وعطف جواب الشرط فى الآيتين بالفاء المفيدة للسرعة، إلا أنها أشعرت فى جزاء المؤمنين التعجيل بالمسرة، بدخولها على الجار والمجرور مقدما" فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا" فى حين أشعرت فى عقاب الكفار التعجيل بالمساءة، ببناء الفعل للمجهول "فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ" مما أبرز المفارقة بين الجزاءين، ولاءم (تسلية الرسول ﷺ ، وتبكيت المشركين ووعيدهم بالعذاب).

---

١ – البلاغة العربية – عبد الرحمن حبنكة الميدانى – ١/ ٥١٧ – ط١ دار القلم –دمشق – ١٩٩٦م.

٢ – يراجع: التحرير والتنوير– ٢٠/ ٥١.

وصيغة البناء للمجهول مشعرة بالتهديد، والتخويف، والترهيب من المصير المجهول بعد تحقق الحدث، وربما أشعرت بأخذهم بغتة، فقد "دلت على الحركة الخاطفة السريعة، التى فاجأتهم فلم يدروا من أين أتت، ثم إن المجهول – فى هذا الموقف المخيف– يثير خيالات كثيرة ،أهمها: أن كبَّهم فى النار على وجوههم بداية لعذاب بدنى، ونفسى، لا يعلم مداه إلا المولى ﷻ"([1])

وفى العدول إلى الماضى طىّ للزمن، نقل صورة كب وجوههم فى النار من المستقبل الى الماضى المحقق، فكشف عن تهديد بالغ، ووعيد قاس لهؤلاء الكفرة، حيث أراهم وجوههم الكريمة قد كبت فى النار، انكباب الشىء الحقير لا يؤبه له، ففيه من الوعيد ما فى قوله ﷻ :"ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" (الدخان: ٤٩) كما أن الكب على الوجوه عدول عن ارتفاعها فى الدنيا، يلائم التهديد، والوعيد، ومجيئه فى الماضى المحقق يلائم تسلية الرسول ﷺ ([2]).

وجاء إطلاق الوجوه على الكافرين– بطريق المجاز المرسل لعلاقة الجزئية– مخيلا أن أجزاءهم كلها تقلصت إلى وجوه قد كبت فى النار، وفيه من التحقير ما فيه، ومن الانحراف عن الطبيعة السوية ما فيه، وكأنهم لما عدلوا عن التوحيد، وأنكروا ما آمن به الموحدون من مشاهد القيامة، عدل البيان عن المضارع إلى الماضى ليقرر تحقق ما أنكروه، فلاءم سياق تسلية الرسول ﷺ ولاءم تهديدهم، ووعيدهم، وواقعهم المنحرف عن فطرة التوحيد، وأسلوب الاحتباك فى الآيتين يؤيد ذلك، لإبرازه المفارقة بين عقابهم، وجزاء المؤمنين، حيث "ذكر الخيرية والأمن أولا، دليل على حذف المثل، والكبّ فى النار ثانيا، دليل على الإكرام عنه أولا "([3]).

صورة حشر منكرى البعث وعرضهم صفا

---

١ – خصائص التراكيب – د/ محمد أبو موسى – ٢٠٨ – بتصرف يسير.

٢ – المحرر الوجيز – ٤/ ٢٧٤ – بتصرف يسير.

٣ – نظم الدرر – ١٤/ ٢٢٥.

"وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً"[الكهف: ٤٧]

عدل البيان إلى الماضى"وَحَشَرْنَاهُمْ" عن المضارع (ونحشرهم) تصويرا لحشر منكرى البعث، فى سياق يرد عليهم من خلال تسلية الرسول ﷺ بتذكيره بيوم حشرهم، وعرضهم على رب الأرباب، وجاء أسلوب العدول عقب أمره ﷺ أن يضرب مثلين لمنكرى البعث، أحدهما: للمؤمن، والكافر، اختتم بهلاك الكافر، ونجاة المؤمن "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ..(الكهف: ٣٢) والآخر: لحال الدنيا، بداية بنزول الماء، وما ينتج عنه من إنبات الأرض، ثم ازدهارها، وانتهاء بذبولها، وفنائها "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ..(الكهف: ٤٥)

ثم انتقل ﷺ من بيان قدرته على تفكيك هذا النظام إلى بيان قدرته على البعث، والحشر، ليشاهده المنكرون قبل التفكيك، أو مصاحبا له، فالواو فى:"وَحَشَرْنَاهُمْ" قيل: إنها عاطفة، فتفيد أن الحشر كان قبل تسيير الجبال، ليعاينوا بأنفسهم تلك الأهوال، وقيل: إنها حالية، بمعنى: وقد حشرناهم: أى: يوقع التسيير فى حالة حشرهم، وقيل: وحشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، مما وضع فيه الماضى موضع المستقبل، لتحقق وقوعه(١).

والتهديد، والوعيد، واضح فى الحالين، إلا أن عَدَّ الواو حالية أقوى فى تصوير هول الموقف، لإفادتها تسيير الجبال مصاحبا الحشر، فيكون أشد تهديدا، ووعيدا، مما لو عُدَّت عاطفة.

أما عن ملاءمة التعبير بالماضى لغرض تهديدهم، ووعيدهم فالمعنى: أن الذى خلق لكم الحياة، ومتعكم فيها بالمال، والبنين عونا على عبادته- وجعلها "الباقيات الصالحات"- فصرفاكم عنها، هو القادر على ذروها بالريح بعد بهجتها، فضرب المثل بذلك، مقررا تلاشى زينتها،"وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ

---

١ - الكشاف – ٣ / ٥٩١ و البحر المحيط – ٦ / ١٢٧ و روح المعانى – ١٥ / ٢٨٨.

خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً"(الكهف: ٤٦) لمن عمل ليوم الحشر، موهما خيرية بين الفانى، والباقى، فعبر بـ"خَيْرٌ" ليشير إلى ضعف تفكير منكرى البعث، وأنهم لم يُعمِلوا عقولهم فيما وهبوا من النعم، فاختاروا الفانى على الباقى" لأن أمل الآمل فى المال والبنين، إنما يأمل حصول أمر مشكوك فى حصوله، ومقصور على مدته، وأما الآمل لثواب الأعمال الصالحة، فهو يأمل حصول أمر موعود به، من صادق الوعد"(١)

من ثم جاء فعل حشرهم ماضيا قد فرغ من حدوثه، بما لا يدع فرصة للشك فيه مناسبا حالهم المنكرة، الرافضة " فقد جعل النسبة الكائنة فى المستقبل مثل النسبة فى الماضى، فى تحقق الوقوع"(٢)

وجاء عطف جملة"وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ" بتقدير: واذكر، على جملة "وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.."بيانا للشبه بين تحول مظاهر الحياة الدنيا، من ابتداء مبهج، إلى انتهاء مثمر للفناء، وبين القدرة الإلهية على البعث، وأثر ذلك فى التهديد والوعيد من خلال تفكيك هذا النظام، وتحويله هباء منبثا "وهو من أحوال انقراض العالم، وإقبال عالم الحياة الخالدة، والبعث"(٣).

كما جاء العدول إلى الماضى ملائما انحراف مظاهر الطبيعة عن مألوفهم حين قرر أن حدث حشرهم قد مضى، وطوى زمنه، ليعاينوا تسيير الجبال، وتلاشيها، وكأنهم عاشوا زمن الحشر من قديم، فأصبح تاريخا بالنسبة إليهم، مما يلائم التهديد والوعيد.

وفى عطف جملة " وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً" على:"وَحَشَرْنَاهُمْ" ومجىء الفعل بلفظ الماضى، وتقرير مجيئهم كما خلقوا أولا "لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ" وتبكيتهم على إنكار هذا الموقف

---

١ – التحرير والتنوير – ١٥/ ٣٣٤ .
٢ – حاشية القونوى – ١٢ / ٩٦.
٣ – التحرير والتنوير – ١٥ / ٣٣٥ .

"بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِداً" من تسلية الرسول ﷺ والاهتمام بشأنه، بإضافته إلى ربه، ما فيه " وفى بناء الفعل للمفعول، مع التعرض لعنوان الربوبية، والإضافة إلى ضميره ﷻ من تربية المهابة، والجرى على سنن الكبرياء، وإظهار اللطف به ﷺ ما لا يخفى"([1]).

وأخيرا جاء العدول ملائما مخالفتهم مقصود سورة الكهف، فلم يرتدعوا بزجر الكتاب، وتمادوا فأنكروا البعث، لذا جاء فعل حشرهم ماضيا محققا، تهديدا لهم بالعقاب، لانصرافهم عن الزواجر، ومخالفتهم منهج العاملين بالباقيات الصالحات، لأن مقصودها "وصف الكتاب بالقيِّم، وأنه زاجر عن الشرك)"([2]).

العدول إلي الماضى بصياغة تكاد تتفق

ورد العدول إلى الماضى بصيغة واحدة، فى موضعين فى سياق عام لسورة (إبراهيم) أحدهما: فى قوله ﷻ: "وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ" [إبراهيم: ٢١] والآخر فى الآية [٤٨] .

الموضع الأول:

عدل البيان إلى الماضى"وَبَرَزُواْ"عن المضارع (يبرزون) ومعنى بروزهم لله: " ظهورهم من قبورهم للرائين، لأجل حساب الله ﷻ فاللام للتعليل، وفى الكلام حذف مضاف، وجُوِّزَ أن تكون اللام صلة البروز، وليس هناك حذف مضاف، ويراد: أنهم ظهروا له ﷻ عند أنفسهم، وعلى زعمهم، فإنهم

---

١ – إرشاد العقل السليم – ٣/ ٥٢٧ .

٢ – يراجع: نظم الدرر – ١٢/ ١ .

كانوا يظنون عند ارتكابهم الفواحش سرًّا أنها تخفى على الله ﷻ فإذا كان يوم القيامة انكشفوا له عند أنفسهم، وعلموا أنه لا تخفى عليه خافية"([1]).

ولم يذكر المفسرون إلا الغرض العام للعدول إلى الماضى، وهو إفادة تحقق الفعل، وبمراجعة السياق وجد أن الأسلوب ورد فى مقام بيان قدرة الله ﷻ على إذهاب المشركين، وإعادتهم خلقا جديدا، وما ذلك بعزيز عليه ﷻ لافتاً كل راءٍ أن يتأمل قدرته ﷻ على خلق السماوات، والأرض بالحق، فكيف بإعادة الخلق، وقد خلقهم أول مرة !.

وتبدو مناسبة أسلوب العدول لما قبله فى: أنه " لما ثبت بهذا البرهان قدرته ﷻ على الإعادة بعد الموت، عطف على قوله: "لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ .." قوله:- بيانا لهوان البعث عنده وسهولته عليه – "وَبَرَزُواْ" أى: فى ذلك اليوم، عبر بصيغة المضى الذى وجد، وتحقق، لأن أخبار الملوك يجب تحققها، لقدرتهم، وغناهم عن الكذب، فكيف بملك الملوك! وفيه من هزّ النفس، وروعتها ما ليس فى المضارع"([2])

وإظهارهم من قبورهم، وكشفهم أمام أنفسهم، هو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، جعلهم فى قلب الحدث، فتأكدوا أنه ﷻ لا تخفى عليه خافية، فأسقط فى أيديهم، من ثم ناسبه العدول إلى الماضى، لإفادة تحقق فعل ظهورهم أمام أنفسهم، كما أشار إلى تخبطهم، فى محاولة يائسة، للهروب من واقعهم الكئيب، كل منهم يلقى تبعة إضلاله فى الدنيا على الآخر.

فكان جدال(الأتباع، والسادة): "فَقَالَ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ" ثم جدالهم الشيطان، وتنصله من إغوائهم:"وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن

---

١ – روح المعانى – ١٣/ ٢٠٥ .

٢ – نظم الدرر – ١٠/ ٤٠٣ .

سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [إبراهيم:٢٢]

وعليه، فغرض العدول هو تهديد المشركين، ووعيدهم بالعذاب- إضافة إلى تحققه- الذى صور بالاستعارة فى زمن الفعل، فخيَّلت ما سيقع مستقبلا كأنه واقع معيش "وما عليهم إلا التفكير فى مواقعهم من هذا الموقف، واستحضار هذه المجادلة، ليستشعروا مدى الخيبة التى جرهم إليها العناد، وإتباع الضعفاء للمستكبرين، وتغرير الشيطان بالجميع، فقد تجاوزت إمكان وقوع الحدث إلى ذواتهم، وأحوالهم التى يجب أن تكون موضع تفكيرهم"(١).

ويؤيد ذلك تمثيل أعمال الكفار برماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، بجامع تلاشى ما يظن نفعه، وضياع أثره: "مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ [إبراهيم : ١٨]

توجيه الخطاب لكل من تصح منه الرؤيا، تدليلا على قدرته ﷻ على الذهاب بالمشركين، واستبدالهم بآخرين يوحدونه، فكل من يرى يدرك أن الذى خلق السماوات والأرض قادر على ذلك:" أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ [إبراهيم: ١٩].

حوار الضعفاء، والسادة، بإلقاء الضعفاء تهمة إضلالهم على سادتهم، وتقريعهم عليه بالاستفهام: "فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللّهِ مِن شَيْءٍ" واعتذار سادتهم عنه بأن الله ﷻ لم يهدهم، ولو حدث- على زعمهم- لهدوهم! "قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ" فالمقام هنا لمن حُمَّ عليه القضاء، وثبت له العذاب، الجزع والصبر فيه سواء، لذا كان تقديم الجزع لتيئيس الجميع: "سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ".

---

١ – جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم – د/ صلاح الدين غراب – ١١٨ – بتصرف يسير.

تنصل الشيطان لما قضى الأمر من تبعة إغوائه لهم، بإقراره بأن الله ﷻ وعدهم وعد الحق، فَصِيْغَ الكلام فى حقه ﷻ بالجملة اسمية، مصدرة بـ "إن" وما فيها من تأكيد، وليها اسمه الأعظم، مذيلا بكونه "وعد الحق" أما فى حق الشيطان فجيء بالجملة الفعلية، لانصباب الغرض على خلف الوعد"إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ" فلاءم العدول إلى الماضى، لوروده فى مقام ثبوت العذاب عليهم، وكل منهم يحاول دفع ما يستحيل دفعه، بإلقاء تبعة إضلاله على غيره، وتنصل الشيطان من إغوائهم: " والغرض التحذير قبل فوات الأوان، والمؤمنون فى شغل عن ذلك بنزل الكرامة "([1]).

وعطفت "جملة:"وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .." على جملة: "وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً" انتقالا إلى وصف حال المؤمنين بمناسبة ذكر حال المشركين، تنزيها لهم من المخاصمة التى وقعت بين المشركين (السادة، والأتباع) وبينهم وبين الشيطان، وإبرازا لكونهم فى دعة وسلام"([2]).

الموضع الثانى:

"يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ"[إبراهيم: ٤٨] .

عدل البيان عن المضارع (ويبرزون) إلى الماضى "وَبَرَزُواْ" مصوغا فى الصورة نفسها، فبدا للنظرة العجلى تكرارا، لكن تدبر السياق يجلى اختلاف المقام، وغرض الكلام فى كليهما، بما ينفى التكرار، ويبرز أن الأولى: " وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً" كانت كشفا للمشركين أمام أنفسهم لحظة ثبوت العذاب عليهم، فتلاءمت وتحقيق قدرة الله ﷻ على استبدالهم بغيرهم يوحدونه، ويعبدونه، وكان الغرض التهديد، والوعيد.

---

١ – التحرير والتنوير – ١٣ / ٢١٦ .

٢ – السابق – ١٣/ ٢٢٢ .

بينما كانت الثانية: "وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ" كشفا لهم أمام أنفسهم وهو يتقلبون فى ألوان العذاب، فتلاءمت وتحقق قدرة الله ﷻ على إذلال أعدائه، وإكرام أوليائه، وكان الغرض التهديد، والوعيد، أضيف إليه تسلية الرسول ﷺ وتصبيره، والبشرى لأولياء الله ﷻ بالنصر، فجاء كل أسلوب أوفق بسياقه، ومقامه، وغرض الكلام، لأنه: "إذا أورد الحكيم– تقدست أسماؤه– آية فى لفظة مخصوصة، ثم أعادها فى موضع آخر من القرآن، وقد غير فيها لفظة عما كانت عليه فى الأولى، فلا بد من حكمة هناك تدرك، فإذا أدركتموها فقد ظفرتم، وإن لم تدركوها فليس لأنه لا حكمة هناك، بل جهلتم"([1]).

وبين الصورتين فروق تبرز تباينهما فى المقام، وغرض الكلام، أهمها:

إتباع الأولى تأكيد كشفهم أمام أنفسهم بلفظة "جَمِيعاً" لأن المقام لبيان قدرة الله ﷻ على كشف كل خفاياهم التى كانوا يفعلونها سرا، ويظنون أنه ﷻ غير مطلع عليها، فلما كشفهم قَرَّ فى أنفسهم – حين ثبت عليهم العذاب– أنه لا تخفى عليه خافية.

أما فى الثانية فقد أتبع فعل بروزهم صفتى: "الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ" لأن المقام لبيان قدرته ﷻ على إهلاك أعداء الأولى، وتقرير تفعيل الثانية فيهم، لأنهم فى قلب العذاب– لذا كان استحضار صورتهم بالمضارع لكل من تصح منه الرؤيا: "وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ"[إبراهيم: ٤٩] – وفى المقابل لتصبير رسوله ﷺ وتسليته، والبشرى بنصرة أوليائه:"وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ [إبراهيم: ٤٢]" "فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ [إبراهيم: ٤٧].

جاء الاستفهام عقب الأولى– فى ثنايا المجادلة– على لسان الضعفاء تهكما بسادتهم، يقرعهم على التغرير بهم، وإضلالهم: " فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ

١– درة التنزيل وغرة التأويل– للخطيب الاسكافى– صـ٢٠– دار الآفاق الجديدة – بيروت – ط٣– ١٩٧٩م.

عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ" وجاء اعتذارهم واهيا "قَالُواْ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ" مختوما بجملة التسوية بين الجزع والصبر "سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ" تفيد تيئيس الجميع من رحمة الله، مما يلائم تخبطهم، وإلقاء كل منهم تبعة إضلاله على الآخر.

فى حين عقبت الصورة الثانية بأساليب خبرية، عدل فيها إلى المضارع، يستحضر صورتهم وهم يتقلبون فى ألوان العذاب:"وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ*سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ"[إبراهيم:٤٩- ٥٠] فأبرزت أنه مقام تقلبهم فى ألوان العذاب، ولاءمت العدول إلى الماضى، الذى حقق هذه الصورة، مخيلا عيشهم فى ثناياها.

ولأن المقام فى الصورة الأولى لتقرير ثبوت العذاب عليهم، بغرض تهديدهم، ووعيدهم، فقد روعى أثر ذلك على أنفسهم، مما أفسح المجال لتفصيل رد الفعل عليهم فى الهروب إلى المجادلة.

أما وقد أضيف إلى التهديد والوعيد- فى الصورة الثانية- تسلية رسول الله ﷺ وتصبيره، وبشرى أولياء الله ﷻ بالنصر، لمناسبة تحقيق تقلبهم فى ألوان العذاب مقام إهلاك الأعداء، وتكريم الأولياء، فلم تكن هنا هذه الفسحة من التفصيل، بل كان وقع الكلام شديدا قاهرا، لاءم تحقيق وعد الله ﷻ لرسوله، تأكيدا على تسليته ﷺ وتحقيقا لبشرى الأولياء بصدق وعد الله ﷻ.

من ثم جاء " قوله:"فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ.." " تفريعا على كل ما تقدم من قوله: "وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ.." تأكيدا لتسلية رسوله ﷺ وأن تأخير عذابهم ليس عن غفلة، وليس خلفا للوعد بنصر الأولياء، لذا عقبه بوصفى (العزة والقهر)المنبئين عن تمام القدرة"([1]).

---

١ - التحرير والتنوير – ١٣/ ٢٥١ .

فكانت إعادة الأسلوب"وَبَرَزُواْ للّهِ"تأكيدا فوق تأكيد على أن الله ناظر إلى الكافرين نظرات السخط، والغضب، وأنه مطلع على خفايا نفوسهم، مهما تستروا، وظنوا أنهم بعيدون عن رؤيته، يأتى العدول إلى الماضى محققا حدث ظهورهم لله ﷻ ومخيِّلا أنهم يعيشون العقاب النفسى، وإن كانوا مازالوا على ظهر الأرض، يظنون التمتع بنعيمها، وهم فى واقع الأمر يعذبون فيها.

العدول إلي الماضى فى سياق تنعيم المؤمنين

وكما ورد العدول إلى الماضى فى مشاهد القيامة تصويرا لعذاب الكافرين، ومنكرى البعث، فقد ورد كذلك تصويرا لنعيم المؤمنين فى الجنة، وتصفية قلوبهم قبل دخولها، وثنائهم على الله ﷻ لهدايتهم للأسباب التى أوصلتهم إلى الفوز بنعيمها، وقد ورد فى مقامات كثيرة، أكتفى بالوقوف مع اثنين منها:

١- فى مقام إبراز سعادة المؤمنين بنعيم الجنة مقابلا تحسير المكذبين :

"وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ [الأعراف: ٤٣] .

عدل البيان من المضارع(وننزع) إلى الماضى"وَنَزَعْنَا"فى مقابلة بين نعيم المؤمنين، وعذاب الكافرين، استحضارا لما سيسعد به المؤمنون من نعيم، بتشبيه ما سيحدث بالحادث المحقق، ثم استعارة الحادث المحقق"وَنَزَعْنَا" لما سيحدث(ننزع) تصويرا لتحقق زمن الفعل، فأشار إلى بشرى المؤمنين بتصفية قلوبهم قبل دخولهم الجنة، مقابلا تحقق عذاب الكافرين، وعادة ما يصور القرآن تنعيم المؤمنين فى سياق مفعم بألوان عذاب الكافرين، زيادة فى

إيلامهم نفسيا، بهدف الترهيب من عذاب الله ﷻ – ماديا ومعنويا– " فما نعيم أهل الجنة إلا عذاب للكافرين.. بل إن نعيمها يخزيهم، ويزيد من عذابهم"([1]).

فمعنى قوله:"الَّذِينَ آمَنُواْ" أى: بآياتنا، أو بكل ما يجب أن يؤمن به، فيدخل فيه الآيات دخولا أوليا، وقوله:"وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ"أى: الأعمال الصالحة التى شرعت بالآيات، وهذا بمقابلة الاستكبار عنها"([2]).

جاء تحقق نعيم المؤمنين بنزع الغل من صدورهم، ولهج ألسنتهم بحمد ربهم ﷻ الذى هداهم لنعمة الأسباب لما هم فيه من نعيم الجنة"وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا"بالعدول إلى الماضى، فأفاد أن حدثى النعمة، وشكر ربهم ﷻ عليها قد تحققا، وأن الأمر تجاوز مرحلة الوقوع، أو عدمه، مخيِّلاً أنهم يعيشون السرور، والغبطة بآثارهما، ويتمتعون بنعيم الجنان، فالمقام لتصوير آثار الحدث، بغرض بشرى المؤمنين، ووعيد المكذبين، وتحسيرهم.

ويؤيده مجىء أسلوب العدول عقب "الإشارة إلى المؤمنين بالاسم البعيد "أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" إشعارا ببعد منزلتهم فى الفضل، والشرف، كما أن فى الجملة دلالة على قصر ملازمة الجنة عليهم، دون غيرهم، ففيه تأييس آخر للمشركين، قوى نصه على حرمانهم من دخول الجنة، بعد تعليق دخولهم لها على مستحيل"([3]).

فإذا قوبلت حالهم تلك بحال المكذبين– قد نفى تفتح أبواب السماء لهم، وعلق دخولهم الجنة على مستحيل، استهزاء بهم، وتنكيلا:"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ"(الأعراف:٤٠) – تجلت حسرة المكذبين، فى مقابل سرور

---

١ – الكشاف – ٢ / ٤٧٥ والبحر المحيط ٤/ ٣٠٣ .

٢ – إرشاد العقل السليم – ٢/٣٤٤ .

٣ – يراجع: روح المعانى – ٨/ ١٢٠ و التحرير والتنوير – ٨/ ١٣٠ – بتصرف يسير.

المؤمنين، بتحقق نعيمهم، وثنائهم على ربهم ﷻ لأن جملة:"وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ" تفيض بمعنيى الشكر من المؤمنين، والحسرة من الكافرين، لما "روى عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:" كل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هدانى، فيكون له شكرا، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لولا أن الله هدانى، فيكون له حسرة"..."([1]).

من ثم، جاء "عطف حال السعداء"وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ.."(الأعراف: ٤٢) على حال الأشقياء"إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا.." مجليا- بالتضاد بين مفهومى الجملتين- تحقق نعيم الشاكر، وسروره به، وعذاب المكذب، وحسرته على ما فاته من الإيمان"([2]).

ومما يجلى سرور المؤمنين بما يحيون فيه من نعيم الجنة- بعد رؤية كل فريق مقعده- مجيء ندائهم أصحابَ النار بالاستفهام، تقريعا، وتوبيخا لهم على تكذيبهم بالآيات، واستكبارهم عنها، مما يلائم تحقق صدق الوعد، والوعيد:"وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً..؟(الأعراف: ٤٤) "فالاستفهام مستعمل مجازا مرسلا، بعلاقة اللزوم، فى توقيف المخاطبين على غلطهم، وإثارة ندامتهم، وغمهم على ما فرط منهم، والشماتة بهم فى عواقب عنادهم"([3]).

ومن عجيب صياغة أسلوب العدول وروده فى جملة اعتراضية، بينت حال المؤمنين فى التمتع بنعيم الجنة، تقابل أخرى اعترضت فى ثنايا عذاب الكافرين، إشارة إلى أن المؤمنين فى قلب النعيم، والمكذبين فى لهيب العذاب، لأن" اتساق النظم يقتضى أن تكون جملة"تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ" حالا من الضمير فى قوله:"هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" وتكون جملة:"وَنَزَعْنَا"معترضة

١ – تفسير ابن كثير – ٦/ ٣٠٣ .
٢ – السابق- ٦/ ٣٠١ – والتحرير والتنوير – ٨/ ١٣٠ – بتصرف يسير.
٣ – التحرير والتنوير – ٨ / ١٣٦ .

بين جملة:"أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّـةِ .." وجملة: "وَقَـالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّـذِي هَدَانَـا لِهَـذَا.." اعتراضا بين به حال نفوسهم فى المعاملة فى الجنة، ليقابل الاعتراض الذى أدمج فى أثناء وصف عذاب أهل النار، والمبين به حال نفوسهم فى المعاملة، بقوله:" كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا""(١).

أخيرا، ولأن المقام لإبراز غبطة المؤمنين، وسرورهم بتحقق النعيم، فى مقابل تحسير المكذبين، وتنديمهم، ترى البيان يركز على ما ينهض بالمعنيين، مما له دور فى تحقق الحدث بالعدول إلى الماضى، فيذكر متعلق"الَّـذِينَ كَذَّبُواْ" وهو"بِآيَاتِنَا" إشارة إلى عظم الجرم، وتشهيرا بانحرافهم عن الفطرة، مؤكدا خبرهم بـ "إنَّ" فأفاد تيئيسهم من دخول الجنة، ومعبرا عنهم بالموصول إشارة إلى نوع بناء الخبر، وأن الجزاء من جنس العمل.

وفى المقابل تراه قد سكت عن متعلق"الَّذِينَ آمَنُواْ" فلم ينص عليه، كنصه على متعلق التكذيب "لأن الإيمان صار كاللقب للإيمان الخاص الذى جاء به دين الإسلام، وهو الإيمان بالله وحده، فكان جزاء الملقبين به الجنة"(٢).

٢ـ فى مقام سرور المؤمنين بنعيم الجنة وقد كانوا يخشون العقاب:

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ [فاطر : ٣٤]

عدل البيان إلى الماضى: "وَقَـالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ" وكان مقتضى الظاهر التعبير بالمضارع (ويقولون) فى سياق يبين أقسام المصطفين لإرث علم الكتاب، وهو القرآن على الأرجح، فى قوله: "ثُـمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّـذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَـا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ" [فاطر: ٣٢].

---

١ – السابق – ٨/١٣١ .

٢ – السابق – ٨/ ١٣٠– بتصرف يسير .

اختلفت كلمة المفسرين فى مرجع الضمير فى:"فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ" على قولين: أحدهما: يرجعه إلى:"الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا" وعليه فالأقسام الثلاثة فى أمة سيدنا محمد ﷺ وكل يدخل الجنة، على تفاوت فى الدرجات، بدليل جمعهم فى الدخول، والتحلية، واللباس: "جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ [فاطر:٣٣] وبدليل القراءة المشهورة لـ"جَنَّاتُ" بالجمع، سواء بالرفع، على البدل من"الْفَضْلُ الْكَبِيرُ"أو بالنصب، على إضمار فعل يفسره المذكور تقديره: يدخلون جنات عدن يدخلونها، وعليه يعود الضمير فى:"وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ" على الأقسام الثلاثة، وأن جميعهم قد أذهب الله عنه الحزن، وقد تحقق ثناؤهم على الله لإدخالهم الجنة، هذا ما عليه عامة المفسرين ([1]).

والآخر: قال به بعضهم، حيث أرجع الضمير فى:"فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ" إلى:"عِبَادِنَا" وعليه فالظالم لنفسه هو الكافر، والمنافق، ويعود فى: "يَدْخُلُونَهَا"على الطائفتين(المقتصد والسابق بالخيرات) وعليه فالضمير فى:"وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ" يعود عليهما دون الأولى، وَرُدَّ هذا القول لتناقضه مع كون الظالم لنفسه قسم من الذين اصطفينا، والكافر، والمنافق لا يكون مصطفى لإيراث الكتاب([2]).

والرأى الأول هو الملائم للسياق، فعليه عامة أهل العلم، وتؤيده الآثار الواردة عن رسول الله ﷺ لاتساقه مع النظم، وملاءمته تحقق الثناء فى أسلوب العدول، فـ "هو الأظهر فى النظم الجليل، ليطابقه قوله بعد: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ.." ولينا سب حديث التعظيم، والاختصاص المدمج فى قوله:"ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ".. ولينا سب ذكر الغفور بعد حال الظالم،

١ – يراجع: المحرر الوجيز– ٤/ ٤٣٩
٢ – يراجع: السابق – الصفحة نفسها – بتصرف.

والمقتصد، والشكور حال السابق.. وكيف لا يكون الأظهر؟ وقد فسره كذلك من أنزل عليه هذا الكتاب، وإليه ذهب الكثير من أصحابه الفخام"([1])

فإذا ربط أسلوب العدول المحقق قولهم بالحمد لله ﷻ سرورا بنعمة إذهاب الحزن، وقد كانوا يخشون العقاب، بمقاصد سورة فاطر، وهى لتفصيل النعم، ومنها نعمة الإبقاء فى الآخرة، تبين ملاءمة الأسلوب لسياق السورة، ومقصودها "فمقصودها إثبات القدرة الكاملة لله ﷻ اللازم منها تمام القدرة على البعث، الذى عنه يكون أتم الإبقاءين، الإبقاء بالفعل دائما أبدا- بلا انقطاع، ولا زوال، ولا اندفاع- فى دار المقامة التى أذهب عنها الحزن، والنصب، واللغوب، ودار الشقاوة الجامعة لجميع الأنكاد، والهموم"([2]).

هذه النعمة المفصلة فى فاطر، هى المشار إليها فى فاتحة الكتاب، عند بيان معنى:"يَوْمِ الدِّينِ" بأن بدايته ليست "يوم ظهور الحق، بإمضاء المجازاة، حيث تسقط دعوى المُدَّعِين، وهو من أول يوم الحشر إلى الخلود، فالأبد، بل فى الحقيقة من أول يوم نفوذ الجزاء عند مفارقة الذنب فى باطن العامل أثر العمل، إلى أشد انتهائه فى ظاهره، لأن الجزاء لا يتأخر عن الذنب، وإنما يخفى لوقوعه فى الباطن، وتأخره عن معرفة ظهوره فى الظاهر، ولذلك يؤثر عن النبى ﷺ "إن العبد إذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء.." وأيضا فكل عقاب يقع فى الدنيا على أيدى الخلق فهو جزاء من الله ﷻ "([3]).

وإذا كانت بداية المجازاة على الذنب حقيقة عقب فعله، بظهور أثاره على فاعله ظاهرا، وباطنا تفيد تحقق العقاب مباشرة، فكذلك ثواب فاعلى الصالحات، فإن سعادتهم، وسرورهم به، تشمل ظاهرهم، وباطنهم عقب فعله، مما له دور فى العدول إلى الماضى، وتحقق ثنائهم على الله ﷻ بإذهاب الحزن عنهم، وقد كانوا يخشون العقاب، ولو عبر بالمضارع كما فى:"جَنَّاتُ

---

١ – روح المعانى – ٢٢/ ١٩٨.
٢ – نظم الدرر – ١٦/ ١ و٦٠.
٣ – السابق – ١/ ٢٣ و ٣٠.

عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا" ما لفت إلى سرورهم بالعطاء الإلهى وقد كانوا يخشون العقاب.

من ثم جاء "إذهاب الحزن مجازا فى الإنجاء منه، يصدق بإزالته بعد حصوله، ويصدق بعدم حصوله أصلا، والحزن: الأسف، والمراد: أنهم لما أعطوا ما أعطوه زال عنهم ما كانوا فيه قبل، من هول الموقف، ومن خشية العقاب، بالنسبة للسابقين، والمقتصدين، ومما كانوا فيه من عقاب، بالنسبة لظالمى أنفسهم"([1]).

وأخيرا لما كان المقام فى الأسلوب الأول لإبراز سرور المؤمنين بنعيم الجنة، مقابلا عذاب المكذبين بآيات الله ﷻ جاء ثناء المؤمنين منصبا على نعمة الهداية إلى الأسباب الموصلة لما هم فيه من النعيم، مما له دور فى تحسير المكذبين:"وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا.." ولما كان المقام هنا لإبراز سرورهم بنعيمها، وقد كانوا يخشون العقاب، انصب الثناء على نعمة إذهاب الحزن: "وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ..".

****

١ – التحرير والتنوير – ٢٢/ ٣١٦.

ثانيا: العدول إلي الماضى فى صورة لوحة متكاملة

العدول إلي الماضى فى لوحة سورة (ق)

"وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ*وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ*وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ*لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ*وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ* ... قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ* قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ .." [ق:١٩].

ورد العدول إلى الماضى ردا على منكرى البعث، المحكى قولهم فى مطلع السورة: "أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ"(ق:٣) ثم بين علمه ﷻ بجميع أحوالهم، وأنها مسجلة عليهم فى كتاب حافظ أدق خلجاتهم "قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ"(ق:٤) وأن دلائل البعث كائنة فى كل المخلوقات، لذا استفهم منكرا، ومتعجبا من عدم نظرهم فى بنيان السماء، وزينتها "أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ"(ق:٦) وفى مد الأرض، وتثبيتها بالجبال، وإخراج النبات منها "وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"(ق:٧).. إلى تشبيه البعث بإخراج النبات "رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ" (ق:١١).

فى هذا السياق تتابعت أفعال ماضية، عدل بها عن المضارع، مشكلة لوحة ذات مشاهد، تصور قدرته ﷻ على البعث، بدأت بتحقق مجىء سكرة الموت "وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ" وغيرها من مشاهد القيامة، التى لم تحدث، فأشعرت المتلقى بالرهبة، والفزع من أهوال الموقف.

فالأفعال الماضية أدخلته فى جو الحدث، مؤكدة حياته داخل سكرات الموت، فاهتز كيانه، وفزعت نفسه إثر النفخ فى الصور قد تحقق"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ"فاستسلم لجبروت مالك الملك حين"جَاءتْ كُلُّ

نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ"وقد عرضت عليه نفسه متحسرة فى موقف التقريع، قد شخص بصرها، وصار حديدا من شدة الذهول، وغلبة الكرب "لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ".

ثم أخيرا، وقد حاجَّ قرين السوء – الذى لازمه طيلة حياته، يزين له الإشراك بالله ﷻ وإنكار البعث، وفعل المنكرات– قد تنصل منه، بعدما كان رفيق دربه، وناصحه الأمين "وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ... قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ" وإنهاء المحاجة بالحكم الحاسم، والقول الفصل قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ.."

.

جاء الماضى فى سياقه ملائما مقاصد سورة (ق) التى منها: "الوعيد للمشركين، منكرى البعث، بداية من الاحتضار إلى معاينة أهوال القيامة، كالبعث، وغيره، وتسلية الرسول ﷺ ووعد المؤمنين بنعيم الآخرة"(١).

كما جاء ملائما تهديد منكرى البعث ووعيدهم " فلما ذكر إنكارهم البعث، واحتج عليهم بوصف قدرته ﷻ وعلمه، أعلمهم أن ما أنكروه، وجحدوه، هم لاقوه عن قريب عند موتهم، وعند قيام الساعة، ونبه عن اقتراب ذلك، بأن عبر عنه بلفظ الماضى، وهو قوله: "وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ" ... وَنُفِخَ فِي الصُّورِ" "(٢).

وقد أضفى البيان– بإيثار الماضى– على هذه اللوحة صفة الحكايات المروية، فلاءمت غرض الكلام، بما استثارت من مشاعر الخشية، والإشفاق، والفزع من أهوال الموقف، متجاوزة زمن وقوع الأحداث إلى التأمل فيها " وأنت الآن تسمع تلك القصة، التى تملأ قلبك إشفاقا، وخشية، بهذا الأسلوب، الذى لا يدعك تفكر فى إمكان وقوع الأحداث، وإنما يجعلك تفكر فى الأحداث، والمواقف نفسها، لتتأمل ما فيها من رهبة، أو رغبة، فمسألة الوقوع، وعدمه،

---

١ – التحرير والتنوير – ٢٦/ ٢٧٥ .

٢ – الكشاف – ٤/ ٢٧٠ .

ألغاها الماضى، حين صيَّرها واقعا يروى، ونقلها من المستقبل الذى سيكون، إلى الماضى الذى قد كان"([1]).

وجاء تعميم الخطاب فى قوله: "ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ" مستفزا نفوس المخاطبين لتأمل ما فى الماضى من رهبة، ورغبة، وفى السياق ما يدعو إليه "فقيل: إن الخطاب للكافر، والمشار إليه (الحق) وقيل: إنه لجنس الإنسان، فيشمل البر والفاجر، وعليه يكون المشار إليه (الموت)" ([2])

وقد تجلت بلاغة اسم الإشارة فى هذه اللوحة فى تشخيص المعنوى، وتحسير الكافرين، ومنكرى البعث، وتنديمهم، مما له دور فى الغرض من العدول إلى الماضى، فأفاد تعذيبهم نفسيا، بعرضهم فى خضم أحداث كأنها قد تحققت، وما ينبغى فعله تأمل حالهم، وهم الآن يكتوون بنارها.

فكانت الإشارة بالبعيد مرتين: إحداهما: إلى (الموت، أو الحق) فى قوله: "ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ" والأخرى: إلى (البعث) فى قوله:"ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ" مشخصة المعنوى، محضرة إياه ماثلا لمن أنكروه، كاشفة عن هول الموقف، وتآزرت مع العدول إلى الماضى فوضعتهم فى قلب الحدث، يكتوون بنيران جزاء شكهم، وإنكارهم، واستبعادهم وقوع البعث، كما لاءمت الغرض بعرضها تحقق ما استبعدوا وقوعه، وشكوا فيه، لأن" "ذلك" إشارة إلى الموت، بتنزيل قرب حصوله كالحاصل المشاهد"([3]).

وجاء عطف جملة:"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ"على جملة"وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ"مقويا كونهم فى غمرة الأحداث، وأنها أهوال كثيرة قد تحققت، وأنها محيطة بهم من كل جانب "فاستعمل الماضى فى المضارع لإفادة تحققه، ووقوعه"([4]).

---

١ – خصائص التراكيب – د/ محمد أبو موسى – ص ٢٠٩ – بتصرف يسير .

٢ – يراجع: روح المعانى – ٢٦/ ١٨٢ .

٣ – التحرير والتنوير – ٢٦ / ٣٠٦ .

٤ – السابق – ٢٦/ ٣٠٧ .

وجاءت الإشارة للقريب مرتين: فى قوله: "لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ" وفى قوله: "وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ" وقيل: إن الخطاب فى الأولى للرسول ﷺ فتكون "هذا" إشارة إلى الرسالة، والمعنى "لقد كنت يا محمد ﷺ في غفلة من الرسالة في قريش في جاهليتهم"(١).

وينقضه أن السياق قبله تركز على حديث الكافرين، ومنكرى البعث، موضحا مصير المكذبين من(عاد، وثمود، وقوم نوح، وفرعون) كما ينقضه دلالة الغفلة على "السهو الذي يعتري الإنسان من قلة التحفظ والتيقظ"(٢).

وعليه يكون الخطاب عاما لتقريع المكذبين، ومنكرى البعث، فتكون "هذا" إشارة إلى "الموعد الذي غفلت عنه، أو هذا هو الموقف الذي لم تحسب حسابه، وهذه هي النهاية التي كنت لا تتوقعها"(٣).

والمعنى:" لقد كنت جبلة، وطبعا، فى غفلة عظيمة، محيطة بك، ناشئة لك من تصور هذا اليوم، على ما هو عليه من انقطاع الأسباب، والجزاء بالثواب، أو العقاب، لأنه على شدة جلائه خفى على من اتبع الشهوات"(٤).

وقيل: الخطاب للكافر، والمؤمن "فأما الكافر فمعلوم دخوله فى هذا الحكم، وأما المؤمن فإنه يزداد علماً، ويظهر له ما كان مخفياً عنه، ويرى علمه يقيناً فيكون بالنسبة إلى تلك الأحوال، وشدة الأهوال كالغافل"(٥).

والسياق يرشح خطاب الكافرين لتقريعهم، وتحسيرهم على فوت الاستعداد لهذا اليوم، لذا جاء حرف الظرفية "فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا" مفيدا تلبسهم بالغفلة، وإحاطتها بهم- من مبتدأ حياتهم إلى موقفهم هذا- إحاطة

---

١ - الجامع لأحكام القرآن- القرطبى- ١٧ / ١٥.
٢ - المفردات – للراغب - ٣٦٢-٣٦٣.
٣ - في ظلال القرآن- سيد قطب - ٣٣٦٤/٦.
٤ - نظم الدرر ١٨ / ٤٢٢ .
٥ - مفاتيح الغيب – الرازى- ١٦٥/٢٨.

الظرف بالمظروف، مما يلائم الغرض بخلاف ما لو قيل: لقد صرت إلى غفلة من هذا.

فـ " "مِن" ليست للابتداء، كما قال بعضهم: وإنما هى بمعنى التبعيض، لتهويل ما رأوه من العذاب، ومفاجأتهم، مشيرة إلى أنهم لو ذكروا بعض هذا العذاب ما صاروا إلى ما صاروا إليه، وأن هذا العذاب جزء من أهوال كثيرة، ويؤيده ما سبق الآية فى قوله:"ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ" وقد عدى "تحيد" بـ "مِنْ" دون "عَنْ" على خلاف الأصل، وقيل: إنها بمعنى "عَنْ" وليس كما قيل: بل هو إشارة إلى أن سكرات الموت بعض من الأهوال المتتابعة التى ستلاحقه، والتى تعد سكرات الموت أقله، وأدناه"([1]).

من ثم فقد تآزر تهويل العذاب، ومفاجأتهم بما لم يتوقعوه مع الإشارة بالبعيد إلى الموت، أو الحق فى:"ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ"وإلى البعث فى قوله:"ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ" ليؤكدا- مع العدول إلى الماضى- تحقق كونهم فى قلب أهوال العذاب، وتتابعها عليهم من كل جانب.

وإيثار التعبير بالإشارة للقريب فى:"لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا" وفى قوله:"وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ" دون الإشارة بالبعيد- مثلما عبر به فى:"ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ" وفى:"ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ"- لم أعثر له على سر فى كلام العلماء، إلا أن متابعة السياق تهمس برجوعه إلى الغرض.

فالقوم فى هول الموقف، قد أحيط بهم من كل جانب، وأسقط فى يدهم، ويبدو السر فى أنه لما كان الغرض عرض ما استبعدوا وقوعه، وشكوا فيه (الموت، والبعث) ماثلا لهم، محققا، عبر بالإشارة للبعيد، ليفيد مفاجأتهم بما لم يتوقعوه من العذاب، ولما كان الغرض تحسيرهم، وتنديمهم على ذلك بعد تحققهم من وقوعه، عبر بالإشارة للقريب.

---

١ – يراجع: من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم – د/ محمد الأمين الخضرى – ص ١٢٢ وما بعدها وص ٣٥١ و ٣٥٢ .

وعليه، فقد بدا دور الإشارة – قريبا، وبعيدا– مع العدول إلى الماضى فى نقلهم إلى القيامة، ووضعهم فى غمرات أهوالها، وملاءمة ذلك للغرض، والسياق، ويؤيده ترجيح أن الخطاب فى قوله:"وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ"للكافرين، ومنكرى البعث بدلالة السياق "أى: كل نفس من النفوس المشركة، لأن السائق يناسب إزجاء أهل الجرائم، أما المهدِيُّون فيناسبهم قائد يسير أمامهم، وبدلالة الإشارة للقريب، والخطاب التهكمى، التوبيخى للنفس المشركة، لأن المؤمن لم يكن فى غفلة عن الحشر، والجزاء، فى قوله:"لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا"وفى قوله:"وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ""(١).

****

العدول إلي الماضى فى لوحة خاتمة سورة (الزمر)

"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ* وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ* وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ* وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ* قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ* وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ* وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ* وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ

١ – يراجع: التحرير والتنوير – ٢٦/ ٣٠٧ – ٣٠٨ – بتصرف يسير.

الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*"[الزمر: ٦٨- ٧٥].

عدل البيان إلى الماضى فى قوله: "وَنُفِخَ- فَصَعِقَ- ثُمَّ نُفِخَ - وَأَشْرَقَتِ- وَوُضِعَ- وَجِيءَ- وَقُضِيَ- وَوُفِّيَتْ ...إلخ" استحضارا للصورة المستقبلة بالاستعارة التبعية، بناء على تشبيه غير الحاصل بالحاصل فى تحققه- بطريق الإجمال- فى سياق يبرز أن من أشرك بالله ﷻ لم يقدره حق قدره:"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.."(الزمر:٦٧) لأنه ما وعى أن الله ﷻ: "خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ"(الزمر:٦٢) وأن"لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" وأنه مالك الآخرة "وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ"على سبيل التمثيل بالاستعارة، لتقريب الصورة، وأنه ﷻ منزه عن الشريك"سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ".

و" لما جرى الكلام على تقرير ذلك، وذيل بخسران الذين كفروا بدليل الوحدانية"وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"انتقل هنا إلى بيان عظمته ﷻ فى يوم القيامة، وأن الذين كفروا بآيات الله الدالة على ملكوت الدنيا قد خسروا بترك النظر، فلو اطلعوا على عظيم ملكه ﷻ فى الآخرة لقدروه حق قدره، فتكون الواو عاطفة جملة:"وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ"على جملة: "لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"ويكون قوله:"وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ.. إلخ" معترضا بين الجملتين، اقتضاها التناسب مع جملة "وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ" "(١).

فالأفعال الماضية من قوله:"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ... إلى .. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ.." كانت "انتقالا من إجمال العظمة إلى تفصيلها، بما يناسب غرض إنذار الكافرين، وتبشير المؤمنين، كما جاءت تصويرا لصدور

---

١ – التحرير والتنوير – ٢٤/ ٦١ – بتصرف.

أحكام إلهية، جاء تنفيذها فى المقابلة بين تحقق عذاب من لم يقدروا الله ﷻ حق قدره"وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً" وتحقق نعيم الذين قدروه حق قدره "وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً" والمقابلة بين عذاب الأولين، ونعيم الآخرين، هى مقابلة بين تحقق وعيد الكافرين بسوق الإذلال، والمهانة، وتحقق وعد المؤمنين بسوق العزة، والكرامة([1])

من ثم كان العدول إلى الماضى هو الأنسب للسياق، وغرض الكلام، لاستحضاره الصورة المستقبلة، وتصويره غير الحاصل فى صورة الحاصل الذى تحقق، فسمح للخيال أن يتخطى إمكانية وقوع الأحداث، إلى تفحص ما ترتب على تحققها، فيتقرر فى نفسه أنها قضاء مبرم، لا عدول عنه، مما له دور فى تحقق وعيد الكافرين، ووعد المؤمنين.

وإذا وضح هذا فى صياغة الأفعال الماضية المصورة أحكاما إلهية بطريق الإجمال، فإنه أشد وضوحا فى صياغة الأفعال فى صورة المقابلة المفصلة جزاء كل نفس، ليكون– بهذه الصياغة – شفاء لتشوف النفوس لمعرفة ما أعد لمن لم يقدروا الله ﷻ حق قدره، ولمن قدروه حق قدره، فكانت المقابلة بين عذاب الأولين، ونعيم الآخرين فى صورة الماضى، تحقيقا لوعيد الكافرين ووعد المتقين، لاءمت الغرض الأساس (بيان عظمة الله فى الآخرة).

يُرَى هذا فى "إيثار الابتداء بحديث سوق الكافرين إلى جهنم"وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً"لأنهم الأهم فى مقام الموعظة، والترهيب لمن لم يتعظوا بالآيات، وأخر حديث سوق المتقين"وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً" لما فيه من زيادة ثناء، وتكرير البشرى لهم"([2]).

---

١ – السابق – ٢٤ / ٦٤ و ٦٥ – بتصرف.

٢ – السابق – ٢٤ / ٦٥ .

كما يُرَى فى اعتماد التصوير بالمقابلة فى أغلبه على أسلوب الحقيقة، التى تلائم الأحكام القاطعة، مما له دور فى العدول إلى الماضى المفيد تحقق وعيد الذين كفروا، وتحقق جزاء الذين اتقوا ربهم (١).

وفى التعبير عن كلا الفريقين بالسوق، مع أنه فى الغالب لما يحتقر، ولا يؤبه بشأنه، فيكون حقيقة فى دفع الكافرين بمهانة وإذلال، ومجازا فى المؤمنين بسوق مراكبهم، حثا لها على الوصول بهم إلى دار العزة والكرامة، وقد هيئت لاستقبالهم، ففى التعبير بالسوق مشاكلة لفظية، تبرز البون بين تحقق عذاب الذين كفروا، وتحقق نعيم الذين اتقوا ربهم.

من ثم دخلت الواو على الفعل "فتحت" فى نعيم الذين اتقوا ربهم، فخيَّلت أن أبواب الجنة كانت غلقت-على خلاف الأصل- تهيئة لاستقبالهم، لأنها مفتحة لهم لا تغلق أبدا:"جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ"(ص:٥٠) والمعنى: تحقق كونها مفتحة، لذا جىء بالواو، أما أبواب النار فهى مغلقة لا تفتح إلا عند دخول أهلها، لتفجأهم بفتح أبوابها بسرعة، تبرز شوقها لالتهامهم، وتغلق مباشرة ليحبس سعيرها عليهم، فلا يصل إلى من خارجها، استعدادا لالتهامهم خاصة(٢).

وقد آثر البيان التعبير بـ"الَّذِينَ اتَّقَوْا" فى مقابل"الَّذِينَ كَفَرُوا" دون الذين آمنوا، ليبرز شعور المتقين بما سيحيق بالكفار من فزع هذه المواقف، فوقوا أنفسهم بالابتعاد عن الكفر " والسياق ينصب على حدث الوقاية من الكفر فناسبه التعبير بـ"الَّذِينَ اتَّقَوْا"دون الذين آمنوا، ولأن المتقى أشمل، فيدخل فيه من غفر له، ومن خرج من النار بعد استيفاء عذابه فيدخل الجنة"(٣).

---

١ – يراجع: الصورة البيانية فى التراث البلاغى – د/ حسن طبل – ص ٢٢ .

٢ – يراجع: الكشاف ٥ / ٣٢٥ والبحر المحيط ٧ / ٤٢٤ ودرة التنزيل وغرة التاويل ٣/ ١٣٧.

٣ – يراجع: المحرر الوجيز – ٤/ ٥٤٣ .

ويلحظ دلالة الماضى على الاستمرار بوقوعه صلة للموصول"الَّذِينَ اتَّقَوْا- الَّذِينَ كَفَرُوا" بدلالة السياق، بمعنى: الذين اتقوا، واستمروا على فعل التقوى، والذين كفروا واستمروا على كفرهم، لأن المقام لمدح المتقين، وذم الكافرين، ولتفصيل تنفيذ العدل بين الفريقين، بمجازاة كل بما عمل فى الدنيا "وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ .. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ" فالماضى هنا- بجانب دلالته مجازا على تحقق الوعد، والوعيد- قد دل على استمرار كلٍ على صفته من الكفر، أو التقوى، فلاءم تحقق نعيم المتقين، وعذاب الكافرين.([1]).

وجاءت صياغة الأفعال بالبناء للمجهول "إما للاهتمام بهول الأحداث بصرف النظر عن الفاعل، أو لتعظيم قدرة الفاعل ﷻ لأنه المالك الأوحد ليوم القيامة، مما يلائم الغرض، والسياق([2]).

فرق بين سياقى اللوحتين له أثره فى الغرض

وأخيرا، فهناك فرق بين سياقى اللوحتين له دور فى بيان سر العدول ملائما غرض الكلام، فسياق (الزمر) هو بيان قدرة الله ﷻ وعظمته فى الآخرة، بمعاقبة الكافرين، الذين لم يقدروه حق قدره، ومجازاة المؤمنين، الذين قدروه حق قدره، ويأتى وعيد الأولين، وتخويفهم، وبشرى المؤمنين، تبعا لهذا، أما سياق(ق) فهو رد شديد على منكرى البعث، فالتهديد والوعيد هو الغرض الأساس، يعج به السياق، وتنضح به ظلال الأفعال الماضية، ويؤيده الإيجاز الذى اختزل بعض الأحداث، زيادة فى التخويف بالانتقال فجأة من سكرة الموت إلى يوم الوعيد، مما يلائم هذا الغرض.

---

١ – يراجع: مخالفة مقتضى الظاهر فى صيغ الأفعال – ص ٣٢٨ .

٢ – السابق – ص ٣٤٧ .

الخاتمة

بعد تتبع أثر السياق فى العدول إلى المضارع، وعكسه، فى نماذجه المختارة من الذكر الحكيم، توصل البحث إلى ما يلى:

١- أنه أسلوب عدول عن الأصل، عُدَّ استعارة تبعية فى زمن الفعل، ومجازا مرسلا، والتفاتا، وخروجا على خلاف مقتضى الظاهر، و أيًّاً ما كان، فالمعتد به هو سره البلاغى، ومدى ملاءمته المقام، وغرض الكلام، وأثر السياق فى ذلك.

٢- جاء العدول إلى المضارع فى سياقات أبرزها: تصبير رسول الله ﷺ وتسليته، وسياق نبذ فريق من اليهود القرآن، على الرغم من تبشيرهم به، و سياق بيان موقف اليهود من رسلهم، فى دعوتهم إلى التوحيد، وسياق تفصيل تكريم الله فريق المؤمنين، وتعذيب فريق الكفر، وسياق الرد على منكرى البعث، ببيان عجيب قدرة المولى ﷻ فى إحياء الأرض بعد موتها.

٣- أفاد العدول إلى المضارع غرضين أساسين(الاستمرارية، واستحضار الحال الماضية)- يجتمعان فى سياق، وقد يقصد أحدهما فى آخر- يتبعهما فى كلٍ أغراضٌ أخر: كالتصبر، والتسلية، والبشرى، والإنذار، والإنكار، والتقرير، والتوبيخ، والتقريع، والوعد، والوعيد، وغيرها، بما يلائم اختلاف مجالات القول.

٤- فى العدول إلى المضارع طى للزمن إلى الماضى، يستحضره كأنا نراه رأى العين، وفى العدول إلى الماضى طى له إلى المستقبل، ينقل أحداث القيامة التى لم تحدث كأنها قد وقعت، وفرغ من تحققها، وهذا أبلغ فى التذكير، والترهيب، وآكد، وأعظم موقعا فى النفس، لدلالته على تحقق الوقوع.

٥- أحيانا تكاد تتفق صياغة الأسلوب فى موضعين، فتوهم التكرار، إلا أن متابعة كلٍ فى سياقه تكشف عن فروق دقيقة، تنفى التكرار، وتجعل كلا منهما أليق بسياقه، ومقامه، وغرض الكلام"فَفَرِيْقَاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيْقَاً تَقْتُلُوْنَ- فَرَيْقَاً كَذَّبُواْ وَفَرَيْقَاً يَقْتُلُوْنَ""وَبَرَزُواْ لِلّهِ جَمِيعاً- وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ".

٦- قد يعدل فى سياق إلى المضارع، ولا يراد به زمن محدد، بل يراد استمرار المخاطب على الحدث فى كل وقت، لتهويل الأمر، وتكثيره، وأنه صار ملازما لفاعله كلقبه، وتأتى صياغة المضارع كأنها شرط فيه ما استمر فاعله عليه "إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..".

٧- يأتى المضارع جزءاً من مكونات صورة تشبيهية، لا يتجلى سر بلاغته إلا فى إطارها"وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً""وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ..".

٨- يرد العدول إلى الماضى فى مشاهد القيامة، لغرضين:(ترهيب الكافرين، وترغيب المؤمنين) ولسر عام (تصوير غير الحادث بالحادث المحقق) يتبعه أغراض أخر- كالوعد، والوعيد، والإنذار، والبشارة، والتنديم، والتحسير، والتعجيل بالمسرة، أو المساءة، والتشهير بالمكذبين، وتنبيه المنصرف عن القيامة- تختلف تبعا لسياقاته، وأبرزها: بيان عذاب الكافرين، والرد على منكرى البعث، ونعيم المؤمنين، والبشرى بالجنة، وتسلية الرسول ﷺ وتصبيره.

٩- كثيرا ما يصاغ الماضى فى ثنايا المقابلة بين مشهدين، ليبرز المفارقة بين تحقق نعيم المؤمنين، وعذاب الكافرين، وأحيانا جوابا للشرط ليبرز ارتباط الجزاء بالعمل، أو الإجمال والتفصيل، إيجازا يصور صدور أحكام إلهية، يأتى تنفيذها تفصيلا لما أجمل، وكثيرا ما يرد فى صورة مفردة (فعل

واحد، أو فعلين) وأحيانا تغص به لوحة كاملة، تتابع الأفعال مشكلة عمد البيان فيها، وفى كلٍ يلائم السياق، والمقام، والغرض، ومقصود السورة.

١٠- تلحظ دلالة الماضى على الاستمرار من سياقه، حينما يقع فى حيز الموصول، فيلائم مقامى مدح المتقين، وذم الكافرين"الذين اتقوا– والذين كفروا" بمعنى:الذين اتقوا، واستمروا على التقوى، والذين كفروا واستمروا على كفرهم.

******

وأخيرا، فهذه طاقة نفس حاولت تلمس أثر السياق فى أسلوب من أساليب العدول، لبيان أسراره البلاغية، ومدى ملاءمته المقام، وغرض الكلام، ومقصود السورة، فإن قاربت الهدف، فذلك فضل الله ﷻ وإن كان من تقصير، فهى تبادر معتذرة إلى مولاها، وتسأله ﷻ أن يلهمها السداد فى القول، والعمل.

****

والحمد لله ﷻ أولا، وآخرا.

د/عبد العزيز أبو العزم عبد المقصود سليم

فهرس المراجع

١-القرآن الكريم.

٢- أسلوب الدعوة القرآنية بلاغة ومنهاجا د/عبد الغنى بركة – ط١- مكتبة وهبة- ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٣- الإتقان فى علوم القرآن- للسيوطى- ت- مركز الدراسات القرآنية- وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية.

٤- البديع – لابن المعتز – ت - كراتشقوفسكى- دار المسيرة – بيروت- ط٣- ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م.

٥- البرهان فى علوم القرآن- للزركشى – ت – محمد أبو الفضل إبراهيم- مكتبة دار التراث- القاهرة- بدون تاريخ .

٦- البرهان فى وجوه البيان-لابن وهب- ت- د/ حفنى محمد شرف- مكتبة الشباب-القاهرة- ١٩٦٩م.

٧- البلاغة العربية – عبد الرحمن حبنكة الميدانى- دار القلم – دمشق- ط١- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٨- التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن-لابن الزملكانى-ت-د/ خديجة الحديثى ود/أحمد مطلوب-بغداد- ١٩٦٤م.

٩- تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل- للبيضاوى-ت-محمد حلاَّق ومحمد الأطرش-دار الرشيد- دمشق- ط١-١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

١٠- تفسير إرشاد العقل السليم- لأبى السعود-ت-عبد القادر عطا- مكتبة الرياض الحديثة -الرياض- بدون تاريخ.

١١- تفسير البحر المحيط -ت-مجموعة من الأساتذة- ط١- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

١٢- تفسير التحرير والتنوير- للطاهر بن عاشور-الدار التونسية للنشر- تونس- ١٩٨٤م.

١٣- تفسير جامع البيان- للطبرى-ت-محمد شاكر وأحمد شاكر-ط٢-مكتبة ابن تيمية – القاهرة – بدون تاريخ.

١٤- تفسير الجامع لأحكام البيان- للقرطبى-ت-د/ عبد الله عبد المحسن التركى- مؤسسة الرسالة-بيروت- ط١- ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

١٥- تفسير روح المعانى- للألوسى – دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان- بدون تاريخ.

١٦- تفسير الشعراوى-دار أخبار اليوم- القاهرة.

١٧- تفسير الكشاف- للزمخشرى- ت- مجموعة من الأساتذة- مكتبة العبيكان-الرياض- ط١- ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

١٨- تفسير المحرر الوجيز- لابن عطية-ت-عبد السلام عبد الشافى محمد- ط١-دار الكتب العلمية- ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٩- تفسير مفاتيح الغيب- للرازى-دار الفكر- ط١- ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

٢٠- تفسير نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور- لبرهان الدين البقاعى- دار الكتاب الإسلامى –القاهرة- بدون تاريخ.

٢١- التصوير المجازى والكنائى- د/ صلاح الدين غراب- ط١-مكتبة سعيد رأفت- جامعة عين شمس- ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.

٢٢- الجدول فى إعراب القرآن الكريم وصرفه وبيانه – محمود صافى – دار الرشيد – دمشق- ط٣- ١٤١٦هـ – ١٩٩٥م.

٢٣- جمال النظم القرآنى فى سورة إبراهيم د/ صلاح غراب- ط١- دار الطباعة المحمدية- القاهرة- ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.

٢٤- حاشية الإنبابى على الرسالة البيانية- ط بولاق- القاهرة- ١٣١٥هـ.

٢٥- حاشية شيخ زادة على البيضاوى- دار الحقيقة- استانبول- تركيا- ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٢٦- حاشية الطيبى- ج٧- ت-عبد القدوس راجى محمد موسى-ماجستير- الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة-تفسير- ١٤١٦هـ.

٢٧- حاشية القونوى على البيضاوى ومعه حاشية ابن التمجيد- دار الكتب العلمية – بيروت- ط١ – ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

٢٨- خصائص التراكيب- د/ محمد أبو موسى- مكتبة وهبة-ط٣- القاهرة- ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.

٢٩- درة التنزيل وغرة التأويل- للخطيب الاسكافى- ط٣- دار الآفاق الجديدة-بيروت- ١٩٧٩م

٣٠- درر العبارات وغرر الإشارات فى تحقيق معانى الاستعارات- للحموى- ت- د/ إبراهيم عبد الحميد التلب- ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٣١- شروح التلخيص – دار السرور- بيروت- لبنان-بدون تاريخ.

٣٢- الصورة البيانية فى الموروث البلاغى- د- حسن طبل- مكتبة الإيمان بالمنصورة – ط١- ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

٣٣- الطراز– للعلوى- ت – محمد عبد السلام شاهين- دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان- ط١ - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٣٤- عروس الأفراح-لبهاء الدين السبكى- ضمن شروح التلخيص.

٣٥- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان- لابن قيم الجوزية – ط١- محمد أمين الخانجى – القاهرة – ١٣٢٧هـ.

٣٦- فى ظلال القرآن – سيد قطب– دار الشروق- ١٩٨٧م.

٣٧- مخالفة مقتضى الظاهر فى صيغ الأفعال- ظافر غرمان العمرى-جامعة أم القرى- دكتوراه- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م.

٣٨- المزهر فى علوم اللغة وأنواعها- للسيوطى- ت- فؤاد على منصور- دار الكتب العلمية – بيروت ط١/ ١٩٩٨م.

٣٩- معجم المصطلحات البلاغية – د/ أحمد مطلوب- ط٢- مكتبة لبنان ناشرون- لبنان- ١٩٩٣م.

٤٠- المفردات فى غريب القرآن- للراغب الأصفهانى-ت-محمد سيد كيلانى- دار المعرفة -بيروت-لبنان- بدون تاريخ.

٤١- من أسرار التعبير القرآنى- دراسة تحليلية لسورة الأحزاب- د/محمد أبو موسى- ط٢- مكتبة وهبة- القاهرة- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م.

٤٢- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضرى – ط١- مكتبة وهبة- القاهرة- ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م.

٤٣- منهاج البلغاء وسراج الأدباء- للقرطاجنى- ت- محمد الحبيب بن الخوجة- ط١- دار الكتب الشرقية- تونس- ١٩٦٦م.

٤٤- النظم الترتيبى لصفات فلاح المؤمنين فى المعقد الأول من سورة "المؤمنون"- للباحث- بحث منشور فى حولية قطاع كليات اللغة العربية والشعب المناظرة لها- عدد٤-٢٠٠٩/٢٠١٠م- القاهرة.

****

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
تقديم	٥٢٥
ملاحظات لفتت إلى بحث هذا الموضوع	٥٢٦
تمهيد: مفهوم العدول فى استعمال الأفعال	٥٢٧
من سياقات العدول فى هذا الأسلوب	٥٣١
المبحث الأول: العدول إلى المضارع	٥٣٢
سياق تصبير رسول الله ﷺ وتسليته	٥٣٢
سياق نبذ بعض اليهود القرآن على الرغم من تبشيرهم به	٥٣٥
سياق بيان موقف اليهود من رسلهم فى دعوتهم إلى التوحيد	٥٣٨
الأسلوب فى سياق سورة البقرة	٥٣٨
الأسلوب فى سياق سورة المائدة	٥٤٠
سياق تفصيل إكرام فريق الإيمان وتعذيب فريق الكفر	٥٤٤
سياق التدليل على البعث بإحياء الأرض الموات	٥٤٨
سياق مدح المؤمنين بتعظيم شعائر الله	٥٥٢
المبحث الثانى: العدول إلى الماضى	٥٥٦
أولا: العدول إلى الماضى فى صورة مفردة	٥٥٦
صورة فزع من فى السماوات ومن فى الأرض	٥٥٧
صورة وقوع القول عليهم بظلمهم	٥٦٠
عود إلى صورة فزع من فى السماوات ومن فى الأرض	٥٦١
صورة وجوه الكفار قد كبت فى النار	٥٦٣
صورة حشر منكرى البعث وعرضهم صفا	٥٦٥
العدول إلى الماضى بصياغة تكاد تتفق	٥٦٧
الموضع الأول:	٥٦٨
الموضع الثانى:	٥٧١

الموضوع	الصفحة
العدول إلى الماضى فى سياق تنعيم المؤمنين	٥٧٤
فى مقام إبراز سعادة المؤمنين بنعيم الجنة مقابلا تحسير المكذبين:	٥٧٤
فى مقام سرور المؤمنين بنعيم الجنة وقد كانوا يخشون العقاب:	٥٧٧
ثانيا: العدول إلى الماضى فى صورة لوحة متكاملة	٥٨١
العدول إلى الماضى فى لوحة سورة (ق)	٥٨١
العدول إلى الماضى فى لوحة خاتمة سورة (الزمر)	٥٨٦
فرق بين سياقى اللوحتين له أثره فى الغرض	٥٩٠
الخاتمة	٥٩١
فهرس المراجع	٥٩٤
فهرس الموضوعات	٥٩٨

****